

5 me Année, No. 210

Lundi - 12 - 7 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العــــدد ٢١٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ١٢ يوليه سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

صفحة		
١١٢١	مصطفى لطفى المنفلوطى	أحمد حسن الزيات ... ...
١١٢٣	ماذا فى روسيا السوفيتية	باحث دبلوماسى كبير ... ...
١١٢٥	عين الرضى وعين السخط	الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى
١١٢٧	تأملات فى الأدب والحياة	الأستاذ اسماعيل مظهر ...
١١٣٠	الضعف فى اللغة العربية	الأستاذ محمد سعيد العريان ...
١١٣٤	كلمة وكليمة	للمرحوم مصطفى صادق الرافعى
١١٣٦	إلتقاء النجف بالأزهر	الأستاذ عبد المنعم خلاف ...
١١٣٧	إبراهيم بن سهل الأشبيلى	محمد الأمين بن محمد الخضر الشنقيطى
١١٣٩	موت صديق	ترجمة الأستاذ خليل هنداوى
١١٤٠	الشعر على اللسان النبوى	السيد جلال الحنفى ... ...
١١٤١	بعض أسباب الضعف فى اللغة العربية ...	الأستاذ عويس القرنى ... ...
١١٤٣	هل التقليد هو النظرية السائدة فى التعليم والتفريع بعصر الحديثة	الدكتور محمد البهى قرقر
١١٤٦	فى تكية الدراويش ...	الدكتور عبد الكريم جرمانوس
١١٤٨	الفلسفة الشرقية ...	الدكتور محمد غلاب ... ...
١١٥١	العدالة (قصيدة)	الأستاذ أمجد الطرابلسى ...
١١٥٢	عناد «	حسنى فريز ... ...
١١٥٣	ميكلانجلو	الدكتور أحمد موسى ... ...
١١٥٥	شيخ الأزهر وقت مقدم النابلسى	الأستاذ محمد عبد الله عنان
١١٥٦	بحوث طبية هامة لطبيب مصرى . فى الأكاديمية الفرنسية	
١١٥٦	وطن قومى للنور	
١١٥٧	متحف الآلات الموسيقية . موسم الفن والموسيقى فى سالزبورج	
١١٥٧	ذكرى أبى العلاء فى الرابطة العربية	
١١٥٨	تأبين الرافعى	
١١٥٨	عزلة (قصة) لموباسان	الأستاذ خليل هنداوى ...

مصطفى لطفى المنفلوطى

بمناسبة ذكراه الثالثة عشرة



كان فى مستهل هذا العصر نفر من الأيفاع الخلصاء يتنقلون بين حِلَقِ الأزهر كما تتنقل النحل بين قطع الروض، لا يتشممون غير الزهر، ولا يتذوقون إلا الرحيق؛ وكانوا كالفَراش رقاق الجسوم خفاف الأجنحة يتهافتون على أضواء النوابغ المعاصرين أينما تشع؛ وكانت الومضات الروحية الأخيرة للبارودى واليازجى ومحمد عبده وقاسم أمين ومصطفى كامل والشنقيطى قد التمعت التماعة الموت لتنطفىء كلها متعاقبة فى العقد الأول من عقود هذا القرن، فهيأت الأنفس والأذواق إلى أدب جديد كنا نفتقده فلا نجده؛

وكان إخواننا اللبنانيون فى مصر وفى أمريكا قد فتحوا نوافذ الأدب العربى على الأدب الغربى فأرونا فنونا من القول وضروبا من الفن لانعرفها فى أدب العرب ؛ ولكنها كانت فى الكثير الأغلب سقيمة التراكيب مشوشة القوالب ، فأجمناها على نفاستها كما أجمنا أساليب المقامات من الألفاظ المسرودة والجمل الجُوف والصناعة السمجة والمعانى الغثة

وحينئذ أشرق أسلوب المنفلوطى على وجه (المؤيد) إشراق البشاشة ، وسطع فى أندية الأدب سطوع العبير ، ورن فى أسماع الأدباء رنين النغم ، ورأى القراء الأدباء فى هذا الفن الجديد ما لم يروا فى فقرات الجاحظ وسجعات البديع ، وما لا يرون فى غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة ، فأقبلوا عليه إقبال الهيم على المورد الوحيد العذب

وكان هـذا النفر من الأيفاع المتأدبين يجلسون فى أصائل أيامهم الغريرة أمام (الرواق العباسى) يتقارضون الأشعار ، ويلهون بأغفال الناس ، ويترقبون (مؤيد) الخميس ليقرأوا مقال المنفلوطى خماس وسداس وسُباع ، وطه مرهف أذنيه ، ومحمود مسبل عينيه ، وفلان مأخوذ بروعة الأسلوب فلا ينبس ولا يَطرف . وكلهم يودون لو يعقدون أسبابهم بهذا المنفلوطى الذى اصطفاه الله لرسالة هذا الأدب البكر ، وجعله الإمام المفتى تلميذه المختار ؛ ولكن المنفلوطى كان فى ذلك العهد الذى قرأناه فيه قد جاوز الثلاثين ، فهو قليل الإلمام بالأزهر ، لا يجلس إلى شيخ ولا يأوى إلى رواق ؛ وكان قد هيأ نفسه ليكون كاتباً لا (عالماً) فلم يجعل همه لامتحان ، ولم يشغل ذَرعه بشهادة

وبعد سنتين نشر مختار ما دبج من فصوله فى المؤيد فى كتاب عنونه بالنظرات ، وكان قد حكم على الشيخ عبد العزيز شاويش فى مقاله : (طبقات الكتاب) حكماً شديداً ورطه فيه على ما أظن صلته بالمؤيد وبالمغفور له سعد باشا ، والشيخ شاويش يومئذ محرر اللواء بعد مصطفى باشا كامل ، ولطه به اتصال ، فحرضه على أن ينقد (النظرات) فنقدها ذلك النقد الغاضب الصاخب فى ثلاثين مقالة ونيفا لم تدع سبيلاً إلى التعارف بيننا وبينه

ثم زاولت التعليم فكنت أستعيد قراءة المنفلوطى مقسما بين أقلام الطلبة . وفى سنة ١٩٢٠ ترجمت (آلام فرتر) وكان صاحب العبرات يومئذ قد بلغ الغاية فى الشهرة والأدب ، فرغب فى أن يرانى ؛ وكان لنا صديق مشترك فجمع بيننا فى داره ؛ ورأيت المنفلوطى لأول مرة فرأيت رجلا مجتمع الأشُد ، مربوع الخَلق ، ممتلىء البدن ، غليظ الشارب ، حسن السَّمت ، لا تلحظ على وجهه الملهم المصقول مخايل الفنان ولا سهوم المفكر ؛ ثم تحسبه وهو يحدثك حديثه المقتضب الخافض سَريا من عامة السراة فى الصعيد لا حظ له من بلاغة اللسان ولا رياضة القلم . ثم داخلته فتكشف لى عن ألمعية أصيلة تستترعادة بين الحياء والحشمة ؛ ووثق الودَّ بينى وبينه توافقُ المزاج المنقبض والطبع الحيى والوجود المنعزل ، فدرسته على ضوء ما أعلم من نفسى فلم أجاوز الحق فى تصويره وتقديره

كان المنفلوطى قطعة موسيقية فى ظاهره وباطنه ؛ فهو مؤتلف الخلق ، متلائم الذوق ، متناسق الفكر ، متسق الأسلوب ، منسجم الزى ، لا تلمح فى قوله ولا فى فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز القَدامة . كان صحيح الفهم فى بطء ، سليم الفكر فى جهد ، دقيق الحس فى سكون ، هيوب اللسان فى تحفظ . وهذه الخلال تُظهر صاحبها للناس فى مظهر العيى الجاهل ، فهو لذلك كان يتقى المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة ؛ ومرجع ذلك فيه إلى احتشام التربية التقليدية فى الأسرة ، ونظام التعليم الصامت فى الأزهر ، وفرط الشعور المرهف بكرامة النفس . ولكنك إذا جلست إليه رأسا إلى رأس ، تسرَّح فى كلامه ، وتبارى لسانه وخاطره فى النقد الصريح والرأى الناضج والحكم الموفق والتهكم البارع ، فلا تشك فى أن هذا الذى تحدثه هو المنفلوطى الذى تقرأه . ثم هو إلى ذلك رقيق القلب ، عف الضمير ، سليم الصدر ، صحيح العقيدة ، نفاح اليد ، موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته

(للكلام بقية) احمد حسن الزيات

في التاريخ السياسي

ماذا في روسيا السوفيتية
الصراع بين البلشفية والرجعية
بقلم باحث دبلوماسي كبير

يتساءل الناس عما يحدث في روسيا السوفيتية، وما هو سر هذه المحاكمات الدموية التي تترى منذ عام في موسكو، والتي يقبض فيها على أكابر الزعماء جماعات، ثم يعدمون بعد محاكمة مرتبة موجزة؟ ففي الصيف الماضي قبض على عدة من الزعماء وعلى رأسهم سينو فييف رئيس الدولة الشيوعية الأسبق، وحوكموا بتهمة التآمر على سلامة الدولة بتحريض ليون تروتسكي زعيم البلشفية المنفي، وأعدموا بعد محاكمة قصيرة؛ ثم عقدت خلال الأشهر الأخيرة عدة محاكمات مماثلة، حكم فيها بالموت أو السجن على عدة أخر من الزعماء البارزين مثل العلامة الفيلسوف بوخارين رئيس الدولة الشيوعية السابق، وكارل رادك أعظم كتاب البلشفية المعاصرين، وياجودا مدير البوليس السري وغيرهم؛ ومنذ أسابيع قلائل امتدت يد المطاردة إلى الجيش الأحمر وقبض على عدة من قادته وفي مقدمتهم المارشال توخاتشفسكي، وحوكموا بسرعة مدهشة بتهمة الاتصال بدولة أجنبية معادية لروسيا وإمدادها بمعلومات عن الجيش الأحمر وعن أسرار روسيا العسكرية، ثم أعدموا ليلة صدور الحكم؛ وأذاعت الأنباء على أثر ذلك أن بوادر التمرد ظهرت في بعض وحدات الجيش الأحمر، وأن الثورة نشبت بالفعل في بعض أنحاء روسيا، وأن طاغية الكرملين ستالين يلجأ في إخماد التذمر أو الهياج إلى أروع الوسائل، وهكذا؛ فما هي عوامل هذا الاضطراب الذي يتخذه البعض نذيراً بانهيار النظام السوفيتي؟ وما هي الحقيقة وراء ذلك كله؟

إن الثورة البلشفية التي سحقت عرش القياصرة منذ سنة ١٩١٧، وبسطت على روسيا سيادة «الكتلة العاملة»، واتخذتها ميداناً للتجربة الشيوعية، لم تصل بعد إلى نهايتها؛ وما زالت روسيا السوفيتية تعيش منذ عشرين عاماً في ظل نظم ثورية تسير من طور إلى طور؛ وهذا الصراع الذي يضطرم اليوم بين ستالين وبين جماعة من خصومه، والذي تبدو بوادره في تلك المحاكمات الدموية الرائعة إنما هو نذير تطور جديد في الثورة البلشفية لم تكتمل عوامله بعد؛ ويلاحظ أن هذه الاجراءات الدموية التي يجد ستالين في اتخاذها إنما تقترن بصدور الدستور السوفيتي الجديد الذي تم وضعه في الصيف الماضي، ثم صدر في ديسمبر سنة ١٩٣٦. بيد أنه يجب لكي نفهم عوامل هذا التطور الأخير، أن نرتد إلى الوراء، لنرى كيف نشأ الصراع بين ستالين وخصومه، وكيف أن هذا الصراع يرتبط أشد الارتباط بتطور التجربة الشيوعية في روسيا

كانت الثورة البلشفية تقوم عند بدايتها على دعائم ثلاثة: الشيوعية المطلقة، وسيادة الكتلة العاملة، وإضرام نار الثورة العالمية؛ وكان لنين رأس المذهب الجديد وزعيم الدولة الشيوعية الجديدة يستمد كل وحيه من تعاليم إمام المذهب وأستاذه الأكبر كارل ماركس؛ ولكن التجربة الشيوعية لم تلبث أن اصطدمت من الوجهة العملية بصعاب اقتصادية واجتماعية خطيرة، ولم يلبث لنين نفسه أن اقتنع بوجوب الاعتدال في تطبيق التجربة والأخذ بسياسة اقتصادية جديدة تغفل فيها بعض المبادئ الشيوعية المتطرفة، وتدمج فيها بعض المبادئ الرأسمالية من (البورجوازية). وبدأ لنين بتطبيق هذه السياسة الجديدة منذ سنة ١٩٢١ ولكنه لم يلبث حتى توفي (يناير سنة ١٩٢٤) وكانت وفاة لنين في الواقع فاتحة هذا الصراع الذي تجوز الثورة البلشفية أطواره من ذلك الحين؛ فقد تولى مقاليد الأمور بعد لنين ثلاثة من خاصة أصدقائه وأعوانه هم سنوفييف وكامنيف وستالين؛ ولكن قطباً آخر من أقطاب البلشفية هو ليون تروتسكي مؤسس الجيش الأحمر (الجيش البلشفي) وأعظم رجل في الثورة بعد لنين كان يسهر على مصاير الثورة ويحاول أن يسير دفتها طبق آرائه، وبينما كان ستالين وزملاؤه يتوسمون شيئاً فشيئاً في تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة، وهي تنطوي بالأخص على الاعتراف بالملكية الصغيرة، ومهادنة الدول الرأسمالية والتعامل معها، ومراعاة الاعتبارات الزراعية والتجارية والصناعية في الانتاج، كان تروتسكي يعمل لمعارضة هذه السياسة ويرى أنها خيانة للثورة وللمبادئ الشيوعية الصحيحة، وكان تروتسكي يشدد بالأخص في وجوب اضرام نار الثورة العالمية ويرى أنها هي السبيل الوحيد

لظفر الاشتراكية ، هد حين أن ستالين وفريقه يرون الاقتصار على تطبيق التجربة الاش كية فى روسيا وحدها ويرون نجاحها محققاً دون الثورة العالمية ؛ كان تروتسكى بماضيه الثورى الحافل وصداقته المؤثلة للنين ، وما من فضل عظيم فى نجاح الثورة البلشفية ، ونفوذ قوى فى الجيش الأحمر ، عماد الثوريين المتطرفين ومعقد آمالهم ، ولكنه لم يحسن اس خدام هذا النفوذ وتوجيهه ؛ ومن جهة أخرى فقد استطاع ستالين وفريقه أن يستغلوا الظروف الاقتصادية ، وأن يعتمدوا فى تنفيذ سياستهم على الرجال الاداريين ؛ واستمر النضال بين الفريقين يشتد ويتفاقم ، ولكن ستالين استطاع أن يقوى مركزه ونفوذه شيئاً فشيئاً داخل الحزب الشيوعى وخارجه ، وأن يعمل على إضعاف خصومه وتسفيه معارضتهم وسياستهم ، ولما شعر بأنه غدا هو الأقوى والأشد ساعداً ونفوذاً ، رفع القناع فجأة ، وأخذ يطارد تروتسكى وشيعته جهاراً ؛ وكان يعتمد فى البدأ على مؤازرة عدة من أكابر الزعماء مثل سينوفييف وكامنيف وتومسكى وريكوف وغيرهم ، فلما شعر أنه يستطيع العمل دونهم انقلب إلى مطاردتهم ، فانضم هؤلاء إلى الفريق المعارض ؛ ونزل ستالين وشيعته إلى ميدان النضال ، واستطاع تباعاً أن يقضى على خصومه وأن يخرجهم من حظيرة الحزب الشيوعى الذى هو كل شىء فى حياة روسيا العامة ، والذى يسيطر ستالين باعتباره سكرتيره العام على توجيهه واستخدام نفوذه وسلطانه ؛ ثم خطا ستالين خطوة أخرى ، فنفى تروتسكى وشرد الزعماء من أنصاره ، وشتت شمل المعارضة كلها (سنة ٩٢٩) واستأثر عندئذ بكل نفوذ وسلطة وغدا سيد روسيا وزعيمها القوى ، وأخذ يوجهها فى الطريق الجديد الذى اختاره لها ؛ فوضع مشروع السنوات الخمس لتنظيم الانتاج الروسى ، وهو المشروع الذى قلدته فيه ألمانيا وإيطاليا بعد ، وعمل على التقرب من الدول الغربية ، وكان من أثر هذه السياسة أن انضمت روسيا إلى عصبة الأمم ، وتفاهمت مع فرنسا تفاهماً انتهى بعقد الميثاق الروسى الفرنسى ؛ وجد ستالين فى تسليح روسيا ولا سيما منذ قيام الوطنية الاشتراكية (الهتلرية) فى ألمانيا حتى غدت اليوم أقوى دول القارة فى التسليحات البرية والجوية ، وبذلك اجتنبت روسيا عزلتها السياسية القديمة ، واتخذت مكانتها فى السياسة الأوربية العامة إلى جانب الكتلة الديموقراطية ، وأضحت عاملا حاسماً فى التوازن الأوربى

على أن المعارضة القديمة التى لبث تروتسكى روحها وزعيمها لم تخمد ولم تسحق ، فقد استمر تروتسكى فى منفاه فى مختلف البلاد الأوربية يشهر بقلمه ولسانه حرباً عواناً على ستالين وسياسته ، ويذكى بنفوذه القديم روح النضال فى أنصاره داخل روسيا ؛ وهو الآن فى منفاه النائى بالمكسيك ، وبالرغم من محنته وشيخوخته ما يزال يشهر سهام الخصومة والنضال على عدوه ؛ ويقول التروتسكيون إن ستالين قد سحق الثورة وبدد تراث لنين ، وبسط على روسيا نوعاً من الاشتراكية الوطنية التى بسطها الهتلريون على ألمانيا ، أو بعبارة أخرى بسط عليها نوعاً من الدكتاتورية البورجوازية (الرأسمالية) ، وارتكب بذلك أعظم خيانة لقضية الثورة البلشفية والثورة العالمية

والواقع أن الدستور الجديد الذى صدق عليه مؤتمر السوفيت الأعلى فى ٥ ديسمبر الماضى يدلل بروحه ونصوصه على هذه الحقيقة التى يتخذها التروتسكيون محوراً للخصومة والنضال ، وهو أن الثورة الشيوعية قد انتهت ، وانتهت كذلك فكرة الثورة العالمية . ذلك أن الدستور السوفيتى الجديد يعترف صراحة بحق الملكية الفردية التى يعتبر إلغاؤها أساساً جوهرياً للمجتمع الشيوعى ؛ ويشمل الاعتراف بهذا الحق ملكية الايرادات الناتجة عن العمل وملكية المساكن الشخصية والأثاث المنزلى وحاجات الحياة اليومية ، ويشمل أيضاً حق الميراث ؛ ويمنح حق الملكية بالأخص للطبقات الممتازة فى الدولة كالموظفين وأعضاء الحزب الشيوعى ، والذين حصلوا على أوسمة من ذوى المواهب والخدمات الممتازة ؛ ومن جهة أخرى فان الدستور الجديد يعترف بأن الحزب الشيوعى هو مصدر السلطات ، ويحمى الدكتاتورية التى يبسطها على روسيا فى الوقت الحاضر ، ويؤيد بذلك طغيان ستالين زعيمه وسكرتيره العام ؛ ثم إن الدستور الجديد لا يعترف بحرية الصحافة والرأى والاجتماع كحق للأفراد ، وإنما يقرر أن الدولة هى التى تكفلها وهى التى تمد الشعب بالنشرات والصحف والخطباء وغيرهم ، وهى التى تسيطر بذلك على عقل الشعب وروحه ، وتسيره حيثما شاءت

هذه هى أسس الدستور السوفيتى الجديد ؛ فأى فرق بينها وبين الفاشستية الايطالية ، أو الاشتراكية الوطنية (الهتلرية) الألمانية ؟ انه الطغيان الحزبى المطلق ؛ وإنه لفناء الحقوق والحريات العامة كلها فى شخص الدولة ، والدولة هى الحزب

القابض على السلطان ؛ ومعنى ذلك أن ستالين قد أضحى بقوة الدستور الجديد يشغل فى روسيا نفس المركز الذى يشغله موسولينى فى إيطاليا وهتلر فى ألمانيا ؛ وهذا النظام الذى يتوجه الدستور السوفيتى اليوم هو النظام الذى تعيش روسيا فى ظله منذ استطاع ستالين أن يجمع فى يده القوية كل مقاليد السلطة والحكم

وهذا هو محور النضال الذى يضطرم بين ستالين وخصومه ؛ وهذا هو السر فى تخوف الطاغية من كل حركة أو بادرة تدل على التذمر أو المقاومة ؛ ومنذ عام يجد ستالين فى مطاردة خصومه وكل من يخشى منهم منافسة أومقاومة ؛ ولا تزال اجراءات القمع الدموية تجرى اليوم فى روسيا فى جميع دوائر الحكومة والجيش ، ولن تقف حتى يأمن ستالين كل معارضة وحتى يوقن أنه أخمد كل صوت وكل نزعة إلى المقاومة . ولكن هل ينجح الطاغية فى هذه المهمة الفادحة ؟ هذا ما نشك فيه ؛ فروسيا البلشفية هى غير ألمانيا وإيطاليا ، ولن يستطيع كائن أن يخمد فى هذا المجتمع الروسى الذى عاش فى ظل الثورة عناصر النضال والثورة ؛ وقد تسفر الحوادث عما قريب عن نتائج وتطورات جديدة ؛ بيد أنها لن تكون على مانعتقد سوى طور جديد من أطوار الثورة البلشفية

(***)

عين الرضى وعين السخط

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

هل صحيح ما يقول الشاعر أن عين الرضى عن كل عيب كليلة . . . لا أدرى فقد صار كل شىء يحيرنى ، وما من أمر إلا أرانى يبدو لى فيه رأيان أو مذهبان لطول ما عودت نفسى أن أنظر إلى « الجانب الآخر » ، فلو أنى كنت قاضياً لظلت أحكامى تدور فى نفسى ولا يجرى بها لسانى أو يخطها قلمى . وليس هذا من التردد ، فان من كان ضيق الصدر متنبه الأعصاب مثلى قلما يتردد . وما أكثر ما يؤثر الجزم والبت وإن كان فى شك من الصواب كبير . ولكنما هذا من حب الموازنة والرغبة فى إنصاف كل جانب من جوانب الرأى . وقد قلت لنفسى وأنا قاعد أتدبر قول هذا الشاعر القديم إن أعظم الرضى رضى المرء عن نفسه . أم ترى هذا ليس من الرضى . . لا أدرى أيضاً . . . وأخشى أن أظل لا أدرى فلا أخرج بشىء أبداً . . . ولو أنى أعطيت نفس إنسان غيرى لما قبلت ؛ ومع ذلك لا تخفى على عيوبى ونقائصى من مادية وأدبية ، ومن بدنية ونفسية أو عقلية ، فأنا أعلم أنى . . . . ولكن هل من الضرورى أن أفضح نفسى وأهجوها إلى الناس . . . ومن دلائل الرضى عن النفس على الرغم من الاحاطة بعيوبها ، والفطنة إلى مواطن الضعف والنقص فيها أنى أستخف بهذه العيوب ولا أبالى أن أذكرها ، ولا أعبأ شيئاً إذا رأيت الناس يعرفونها كما أعرفها ؛ وإنى لأدرك بعقلى أنها نقائص ومذام ولكنى أرانى أتخذ أحياناً من المالنة بها مفخرة ومحمدة ، ولست أستخف بها فى الحقيقة ولكنما أحاول تهوينها على نفسى حتى لا يكربنى أمرها ، ولأظل محتفظا بحبى لنفسى ورضاى عنها وغرورى بها ، وحب النفس من حب الحياة

وتذكرت وأنا أقلب هذا وأديره فى رأسى مقالا أو فصلا لأديسون الكاتب الانجليزى المعروف — أم ترى لا يقرأه أبناء الجيل الجديد — يتصور فيه أن الله جلت قدرته أذن للناس أن يخلعوا ويرموا ما لا يرضيهم من أجسامهم ، فهذا رمى أنفه وذاك آخر ألقى أذنيه ، وأخرج الثالث عينيه وقذف بهما ، ونزع رابع ساقه وطرحها ؛ وهكذا حتى صارت الأعضاء والجوارح الرمية المزهود فيها كوماً عالياً . وعاد الله فأذن لهم أن ينتقى كل واحد من هذا الكوم بديلاً مما زهد فيه ورماه فأقبلوا يقلبون ويبحثون وأخذ كل واحد ما أعجبه ووضعه موضع العضو المنزوع ، ثم نظروا بعد ذلك إلى أنفسهم فلم يعجبهم حالهم ولم يرضوا عن أنفسهم واستبشعوا ما أخذوا بديلا مما نزلوا عنه فجأروا بالشكوى إلى الله تعالى وتوسلوا إليه أن يأذن فى أن يسترد كل منهم أعضاءه الأصلية . فتقبل الله دعاءهم رحمة منه بهم ، فما أسرع ما خلعوا ما استعاروا واستعادوا ما كانوا يسخطون عليه ويتبرمون به !

وهذه القصة الخيالية تدل على أن المرء لا يسعه إلا أن

يفطن إلى حقيقة نفســه ، ولكن إدراكه لعيوبه لا يمنع الحب والايثار . وأحسب أن من هنا ما يسمونه « مركب النقص » أى معالجة الانسان مداراة عيب يثقل على نفســه الشعور به ، ومحاولة تعويضه من ناحية أخرى ، والمقارنة والامتحان هما باب المعرفة ، ولا سبيل إلى هذا الذى يسمى « مركب النقص » إلا بعد المعاناة أى الامتحان والمقارنة ولو امتنعت أسباب المعاناة والمقارنة بينه وبين غيره لما شعر المرء بنقص فى نفسه أو فى بدنه ، ولما أحس الحاجة إلى مداراة النقص وستر العيب بالتماس الصحة أو القوة فى ناحية أخرى

وأرانى لا تخفى على عيوب أبنائى وهم أحب خلق الله إلى بعد نفسى كما لا أحتاج أن أقول فما أعدل بنفسى أحداً ، وما أكثر ما سمعت أمى رحمها الله تقول إذا رأتنى أشكو ألماً إنها تؤثر أن تكون هى المصابة ، وأحياناً كنت أسمعها تدعو الله أن يتوفاها قبلى فأنكر هذا عليها فى سرى وأعجب كيف يمكن أن يتمنى إنسان أن يموت قبل غيره . هذا إحساس لا أستطيع أن أدعيه . ولو أنى خيرت أن أموت قبل أولادى أو أن يموت أولادى قبلى لما رآنى أحد أتردد أو أتحير ، وربما أظهرت التردد نفاقاً وستراً للأنانية الصارخة ، ولكن هذا لا يكون منى إلا نفاقاً وكذباً على الله والناس لا أكثر ولا أقل . وكثيراً ما سألت نفسى أترى الرجل غير المرأة ؟ وأنا أؤمن بأن أمى كانت مخلصة صادقة السريرة ، وقد كانت الدنيا كلها لا تعدل عندى قلامة ظفر من أصغر أصبع فى رجلها . فهل تراها لو أن الأمر كان جداً لا تتردد فى إيثارى على نفسها ؟ من يدرى ؟ الرجل غير المرأة على التحقيق . . وشعور الأب غير شعور الأم ، هى حملته تسعة أشهر على قلبها فهى تحس أنه قطعة منها بالمعنى الحرفى لا مجازاً ، ومن أين يتأتى للرجل مثل هذا الشعور وهو لم يعان شيئاً ولا يدرى أكثر من أن امرأته جاءته بغلام أو بنت قد لا يكون له رغبة فيه أو فيها . فأنا أستطيع أن أصدق هذا الايثار من المرأة ، ولكنى لا أستطيع أن أصدق أن يكون الرجل مثلها إيثاراً لابنه على نفسه — على الأقل فيما يمس الحياة — إلا إذا كانت نسبة عناصر الأنوثة فى نفسه كبيرة

ويحضرنى الآن بيت قلته من قصيدة نسيتها وأظنه كان ختام القصيدة وهو :

ألا ليتنى فى الأرض آخر أهلها فاشهد هذا النحب يقضيه عالَمُ

وعيب البيت فى نظرى أن فيه مغالطة واضحة — على الاقل لى — ذلك أنى لا أعنى أن أكون آخر من يبقى فى الدنيا لأرى كيف يفنى العالم ، بل لأنى لا أريد أن أترك الدنيا ، فاذا كان لابد من تركها والخروج منها ، فلتخرب قبلى أو فليكن موتى هو الايذان بخرابها وإمحاء هذا العالم كله . ولم أستطع وأنا أنظم البيت أن أختزل كل هذا فى شطر واحد فجاء البيت غير دقيق فى التعبير عن حقيقة ما فى نفسى

وقد أحببت مرات عديدة — لا عداد لها فى الحقيقة فانى أبدا كما قال فى الأستاذ العقاد :

« أنت فى مصر دائم التمهيد بين حب عفا وحب جديد »

والسبب فى ذلك أن عمر الحب عنــدى لا يطول إلا ساعة أو ساعتين أو ليلة أو ليلتين — إلى أن أمل والسلام — وما من واحدة أحببتها إلا تمنيت على الله أن يهبنى القدرة لأصلح بعض ما لا أرضى عنه فاملأ هذه الساق وأديرها ، وأعالج الترهل الذى يبدو لى فى الثديين مثلا أو الردفين ، وأصلح الأنف ، وأخفف النتوء الذى فى أرنبته ، وأرسم الحاجبين رسما جديداً يكون أقرب إلى ذوقى ورأيى فى التناسب ، وأعالج نفسها أيضاً علاجى لبدنها وهكذا إلى آخره ، فما بى حاجة إلى الاطالة . وليس هذا من الاعتراض على خلق الله سبحانه وتعالى .. حاشا وكلا .. وإنما هو من اشتهاء الكمال كما أتصوره ، ولا كمال فى الدنيا مع الأسف

وقد صدق الشاعر فى الشطر الثانى من بيته كما لم يصدق فى شطره الأول فما من شك فى أن عين السخط تبدى المساوى . وثم عيون أخرى عديدة تبدى المساوى غير عين السخط ، وفى وسعنا أن نتسامح مع الشاعر المسكين وأن نقول إنه يعنى بعين السخط عينا تبدى المساوى ، وأنه لم يرد القصر ولا التخصيص

وأسأل نفسى وأنا أكتب هذا الفصل : «ماذا أخطر ببالك هذا البيت؟» والحقيقة أنى لا أدرى سوى أنى أردت أن أكتب كلاما فحضرنى هذا البيت ، فما أكثر الكلام الفارغ وما أسرعه إلى اللسان

ابراهيم عبد القادر المازنى

تأملات في الأدب والحياة

للأستاذ اسماعيل مظهر

الثقافة التقليدية :

فى مقالات بعنوان « التعليم والحالة الاجتماعية » نشرتها فى الرسالة الغراء منذ حين ، روجت لنظرية استخلصتها من تاريخ الأمم ودعوتها نظرية « الثقافة التقليدية » . ومؤدى هذه النظرية أن لكل أمة من الأمم ثقافة مأثورة تنتقل على الزمن من أهل إلى أهل ، وتتوارثها الأمم طبقة بعد طبقة ، وأن الثقافة التقليدية الخاصة بكل أمة من الأمم أو سلالة من السلالات ، لها من الأثر فى الحالات الاجتماعية ، ما للصفات الوراثية الحيوية من الأثر فى الأفراد ، وأن شباب الأمم من حيث القدرة على الرقى والاحتفاظ بصورة من المدنية تلائم مقتضى البيئة والظروف القائمة من الدنيا الحافة بالأمم ، إنما يرجع فى الحقيقة إلى استمساك الأمة بثقافتها التقليدية واتخاذها أصلاً ثابتاً يغرس فيه ما ينتحل من ثقافات الأمم الأخرى ، فتتكيف هنالك المبادئ المنتحلة ، تكيفاً ملائماً لطبيعة ما توارث الأمم من مأثور ثقافتها التقليدية . وبذلك تحتفظ الأمة بطابع خاص وتجرى تطوراتها الاجتماعية والعقلية والنفسية على قاعدة ثابتة وأسلوب راسخ ، فتأمن بذلك شر الفورات الفجائية والثورات الجتاحة والكوارث الاجتماعيه الفنية ، ويكون لها من مجموع ما حفظت من مأثور أسلافها ضابط يضبط نزوات الأفراد ، ويهيئ المجموع بعقلية ذات طابع تقليدي تكون لها بمثابة الكمّاحة التى تصدها عن التورط فى نواح من التطور غير مضبوطة المعايير ، أو التعلق بأذيال فكرات ومبادئ مريضة المنطق ، بعيدة عن حاجاتها الأولية التى تضمن لها الاتزان والتمقل فى طريقها إلى أسمات جديدة من المدنية أو الرقى العقلى

ولقد أردت بهذه النظرية أن تكون أساساً لسياسة التعليم فى مصر ، فنتخذ من الأصول التقليدية التى قامت عليها المدنيتان العظيمتان ، مدنية الفراعنة فى مصر ، وأساسها الزراعة والقوة الحربية ، ومدنية العرب وأساسها الاسلام والأدب العربى ، منارة نستشرف منها ما نحتاج من مبادئ عامة فنحور من برامجنا التعليمية وخططنا الثقافية بما يلائم طبيعة التقاليد المأثورة عنهما ، ذلك بأن الثقافة التقليدية فى نفسية الأمم وعقلياتها بمثابة الصفة الوراثية فى الفرد ، لا تنفك الأمم عن الأولى أو ينفك الفرد عن صفة تلقاها عن أسلافه

هـذه النظرية على ما فيها من بساطة فى الظاهر تحتاج فى إثبات حقائقها إلى تأملات تاريخية عميقة ، ينفذ الباحث من طريقها إلى أبعد غور من الأعماق التى ينزل إليها قارئ التاريخ المـادى . فان وراء الحوادث الظاهرة فى صفحات التاريخ كانقراض الأمم المالكة ، أو فتوح البلاد ، أو اندحار الجيوش وانتصارها ، أو قيام الحكومات المختلفة وسقوطها ، أو تسلط الأفراد على الأمم وإطراح الأمم لسلطة الأفراد ، حقائق أخرى تصدر عن صفات نفسية تختفى من وراء الحوادث الظاهرة ، فتكون بمثابة القوة المحركة أو الطاقة فى المادة ، فهى خفية بأعيانها ، ظاهرة بآثارها . وهذه القوة إنما تمكن وتستخفى طوعاً لظروف خاصـة ، وتظهر وتستقوى على غيرها طوعاً لظروف أخرى ، وهذه الظروف التى تسكن معها القوى المحركة للجماعات أو تظهر ، ينبغى أن تكون موضوع كل من يكب على التأمل فى الثقافات التقليدية لدرس ما لها من أثر فى كمون هذه القوى أو ظهورها ، بحسب ما يحيط بالجماعات من ظروف تبعدها عن ثقافتها التقليدية أو تقربها منها

أما إذا أردنا أن نستوثق من حقيقة هذه النظرية ، فعلينا أن نرجع إلى التاريخ ، علينا أن نرجع إلى أقرب تاريخ منا ، أى إلى تاريخ العرب . فان الأمة العربية سادت الدنيا عندما استمسكت بعرى ثقافتها التقليدية ، وفقدت الدنيا عندما انحرفت عن الاسترشاد بثقافتها المأثورة . وكذلك كان شأن روما وشأن اليونان قبل العرب . أما الدورات التى انتابت الأمم متراوحة بين الاستعلاء حيناً والتنكس حيناً آخر ، فما هى إلا دورات تقرأ فيها صوراً من التطور ترجع فى حقيقتها إلى استمساك الأمم بثقافتها التقليدية حيناً ، وتفريطها فى ذلك حيناً آخر

فعلينا إذن أن نرسم لمستقبلنا خطة نتخذ فيها ثقافتنا التقليدية نبراساً نستضئ به ، وإلا فإنا سوف نظل نتخبّط فى الظلام فلا نستقر

حادثة:

قد تقرأ تاريخاً كاملا كتاريخ الاسكندر المقدونى وفتوحاته الكبيرة ، وقد تستجلى فى هذا التاريخ صوراً من شجاعة الرجل ومن إقدامه ، وقد تجد فى انتصار من انتصاراته سبباً للتأمل والعبرة ؛ غير أن كل هذا لايدلك على حقيقة الرجل قدر ماتدلك حادثة من الحوادث الصغيرة فى حياته

بعد أن هزم الاسكندر جيش فارس الهزيمة الأولى ، تقدم بجيشه نحو « طرسوس » ، وهى مدينة حصينة من مدن آسيا الصغرى ، تعرف فى التوراة باسم « طرشيش » ، وجاء عيون الأسكندر يخبرونه بأن الجيش الفارسى قد عزم على أن ينهب المدينة ويحرقها إذا لم يبادر الاسكندر باحتلالها . فترك قائده الأكبر « قرمنيون » على رأس المشاة وتقدم الفرسان منحدراً من الجبال الهاوية بقربة من البحر ، إلى السهل الذى تستوى فيه طرسوس ، وجد فى السير ، حتى يتسنى له أن ينقذ المدينة قبل أن يفعل بها الفرس ، والسهل الذى تستوى فيه المدينة شديد الحر كثير الرطوبة ، وقد أفرغ الاسكندر على جسمه درعه الثقيل وعدة حربه ، ممتطياً صهوة جواده الصوّال « بوقيفالوس » ، فقطع أميالاً من الوهاد والوديان ، حتى إذا أشرف على المدينة ، كان قد بلغ منه العطش ، فنزل على ساحل نهر « البَرَدان » وخلع درعه واستحم فى النهر ، والظاهر أن هذا النهر ينبع من الجبال ويستمد ماءه من ينابيع باردة ، فماؤه مثلج بفطرته ، ولقد أصاب الخليفة المأمون مرض إثر استحمامه فى نهر البَرَدان فمات ، ولقد أوشك الاسكندر أن يموت ، كما مات خليفة المسلمين من بعده ؛ ولزم الاسكندر فراشه بعد أن دخل « طرسوس » وشاع أن حياته فى خطر

كان من الأطباء الذين يمنون به ، طبيب شيخ يدعى « فليب الأكرنانى » ؛ وكان من قبل طبيباً لأبيه ومن المتفانين فى خدمة بيت مقدونيا المالك ؛ وقد أقر جميع الأطباء بأن الاسكندر ميؤوس منه ، إلا هذا الرجل ، فأنه نصح للاسكندر أن يذعن إلى رأيه وأن يشرب جرعة سيعدها له بنفسه ، ورضى الاسكندر بذلك على رغم عناده ؛ وخرج الطبيب من حجرة الملك المريض ليعد جرعة الشفاء

فى اللحظة التى خرج فيها الطبيب إلى الحجرة ، دخلها رسول من قبل قائده « قرمينون » يحمل رقعة فى يده ، فقدمها إلى الاسكندر ؛ وكانت تحذيراً للاسكندر من طبيبه « الأكرنانى » فقد اتصل بسمع القائد أن الطبيب مالأ الفرس عليه وأنه تلقى منهم رشوة ليدس له السم فى الدواء

كان الاسكندر قد أتم قراءة الكتاب لما دخل عليه الطبيب حاملاً الجرعة التى أعدها ؛ فتناول الأسكندر الجرعة بيده اليمنى وناوله الرقعة بيده اليسرى ؛ وطفق الاسكندر يكرع الجرعة ، والطبيب ينظر فى الرقعة نظرات جامدة حيّرى ؛ ثم ناول الاسكندر الكأس الفارغة للطبيب ، وناول الطبيب الرقعة للاسكندر ؛ ونظر كل من الرجلين فى وجه الآخر برهة ، ثم استلقى المريض على فراشه ، وانصرف الطبيب إلى شأنه ، من غير أن ينبس أحدهما ببنت شفة .

ألست تجد فى هذا الحادث الصغير معنى عظيماً يدلك على أن القلب الذى حمله الاسكندر كان جديراً بأن يفتح العالم ويدوخ الدنيا برمتها ؟

حاجة اللغة العربية :

قد تكون لغتنا العربية السمحاء فى حاجة إلى كثير من وجوه الاصلاح . قد نقول بأن كتب النحو غامضة وأن قواعد الصرف مشتتة ، وقد نقول إن أدب العربية لم يخدم بعد الخدمة الواجبة ، بل نقول إن اختلاف مذاهب النحويين ، وجود الكثير من اللغويين أمران لابد من النظر فيهما وإصلاح شأنهما بما يلائم حاجات أبناء العربية فى هذا العصر ، كل هذا وأكثر منه صحيح ، والحاجة إليه ماسّة ؛ غير أن أحوج ما تحتاج إليه اللغة العربية المعجمات ؛ وأول ما نتكلم فى المعجمات القديمة

أما هذه فإمّا مطولة ترضى نزعة الباحث الذى تمكن من الأدب وربّى فيه الذوق الأدبى ، فأدمن البحث وطلب الاستقصاء ؛ وإما مختصرة اختصاراً مخلاً فى كثير من نواحى الارشاد اللغوى ؛ وليس بين هذين وسط يسد طِلْبة الأديب

العابر فى رياض الأدب عبور المستفيد ، فلا هو بالمستقصى ولا هو بالقانع بما بين يديه ، وهؤلاء هم جمهرة الأدباء عندنا ، بل وفى كل الأمم . ناهيك بأن معجماتنا القديمة قد تركت كل مادة علمية من المواد التى عرفها العرب ودرسوها من غير تعريف ؛ فهذه دُوَيبَّة ، وذاك طُوبُرٌ ؛ وهذا نبت يكون فى العراق ، وذلك عرق فى الساعد أو الزند ؛ وكذلك صفة الأمراض ، أفى الانسان كانت أم فى الحيوان ، فقد قرأت فى صبح الأعشى من عيوب الخيل ما يزيد على المئة عيب ، كلها ، كما أعتقد ، تمت إلى أمراض ؛ غير أنك قلما تقع على عبارة تشخص لك المرض أو أعراضه الصحيحة ؛ فمعجماتنا ناقصة من هذه الوجهة نقصاً شائناً ، ناهيك بأن فى كتب الأدب والتاريخ والخطط والشعر والتراجم ألفاظاً لم تدخل المعجمات القديمة ؛ ولا نقصد بذلك الألفاظ المولّدة ، بل نقصد بها ألفاظاً فصيحة صحيحة ، فالمعجمات القديمة إذن لم تحط بكل ما فى العربية من مادة لغوية ؛ وهذا نقص نضيفه إلى ما عددناه قبل .

نتكلم بعد هذا فى أنواع المعاجم التى نطالب الآن بوضعها لتتم حاجة اللغة ؛ وأول ما نحتاج إليه المعاجم التى تقابل فيها مفردات لغتنا ، مفردات لغة أخرى ؛ وليست الحاجة فى هذا مقصورة على لغة أو لغتين فان الواجب يحتم علينا أن ننظر إلى كل اللغات الحية ، بل وبعض اللغات غير كثيرة الانتشار ، لنضع لها معجمات تقابل مفرداتها مفردات من اللغة العربية ، على غرار ما نرى فى المعاجم الكثيرة عند الأمم التى أدركت ما للمعاجم من أثر فى إحياء اللغات ونشر الثقافة والمعرفة .

تأتى بعد ذلك حاجتنا إلى المعاجم الخاصة بالعلوم والفنون ؛ فلست تجد الآن معجماً واحداً يرضى حاجة المختصين فى علم من العلوم أو فن من الفنون ويسعفهم بالكلمة الصحيحة والتعريف الكامل للمصطلحات التى تصادفهم أثناء بحوثهم ؛ وهذا نقص معروف شائع ، فلا حاجة إلى التوسع فى شرح الحاجة إلى سدّ ثغرته ؛ وإنما يتبقى لنا أن نتعرف أن أمامنا فى هذا مجهود شاق طويل علينا أن نبذله وأن نضحى فيه بالجهد والمال والعين والعافية

أما الطامة الكبرى والمصيبة العظمى فتشعر بها إذا قارنت بين الأسماء القديمة والحديثة الواردة فى كتب التاريخ أو الجغرافية ، فقد تقرأ الاسم الواحد الدال على ذوات بعينها مرسوماً بعدة أهجية مختلفة فى كتب مختلفة أو فى كتاب واحد ؛ فقد يتفق أن يكون المؤلف قد اعتمد على كتب إنجليزية تارة وعلى كتب فرنسية تارة أخرى ؛ فينتقل الاسم الواحد كما يلفظه ويرسمه الانجليز مرة ، وكما يلفظه ويرسمه الفرنسيون مرة أخرى ؛ ولا تبلغ بلبلة الألسن فى هذه الناحية من الفساد مبلغها فى نقل الأسماء القديمة ، وبخاصة إذا كانت أسماء عرفها العرب ، فقد قرأت فى كتب مختلفة الأعلام الآتية : مرجراط ، مرجرات ، مرغرات ، مرغراط ، مرج راهط ، مرج راهد ، مرجراه ، وكلها للموقعة المعروفة فى مرج راهط ؛ وقرأت : رقطيس ، راقتيس ، راقطيس ، راقوده ، رقوته ، وكلها للمستعمرة الاغريقية المعروفة راقوطيس فى شمال الدلتا فى تاريخنا القديم وهى راقودة عند العرب ؛ وقد أذكر أن الفروق فى رسم الأعلام قد بلغ من الاختلاف فى أسماء أخرى مبلغاً لا يدركه أشد الواقفين على حقيقة الأسماء القديمة ، ولا شبهة عندى أن مبتدئاً فى درس التاريخ أو الجغرافية إذا وقع له مثل هذا فى كتب مختلفة أو كتاب واحد لظن لأول وهلة أن اختلاف الرسم يدل على اختلاف الذات .

هذه الحال تحفزنا إلى الدعوة لوضع معاجم لأسماء الأعلام ، فنحتاج إلى معاجم فى أسماء الأعلام القديمة ، ومعاجم لأسماء الأعلام الحديثة ، ومعاجم تضبط فيها أسماء الأعلام العربية ، وإن من الأسماء العربية ما تقرأه على أوجه عديدة إذ لم يكن تام الضبط بالشكل الكامل

لم أتناول فى هذه الكلمة إلا بعض حاجة اللغة العربية إلى المراجع ، فهل قدرنا كل ذلك ؟ وهل اتخذنا العدة للعمل ؟ وهل لهذا العمل ظهراء من أغنياء هذا البلد والقائمين على أمره ؟ نرجو مؤملين أن تتوجه الجهود إلى هذا العمل إن كانت الرغبة فيه موجودة ، ونرجو أن يتضافر الكتاب والباحثون على خلق الرغبة فيه إذا لم تكن موجودة

اسماعيل مظهر

إلى الأستاذ أحمد أمين :

الضعف في اللغة العربية

للأستاذ محمد سعيد العريان

تناول الأستاذ الجليل أحمد أمين في العدد ٢٠٨ من الرسالة موضوع الضعف في اللغة العربية ، بعد ما تناوله عديد من الصحف والمجلات في هذه الأيام ؛ وما كان لي أن أعنى بمناقشة ما قال الكاتبون في هذا الموضوع والادلاء برأيي فيه لولا اعتدادي بمكانة الأستاذ الكبير وما لآرائه من خطر وقيمة ، فأنا لهذا أكتب إليه أستدرك أشياء وأنبه إلى أشياء لعل لها أثراً في توجيه البحث ينتهي إلى الغاية التي يريد ونريد

وأحب قبل أن أمضي فيما أنا بسبيله أن أؤكد لأستاذي ما لا بد من توكيده : إنني فيما أكتب إليه بعيد عما يسميه النزاع الشخصي أو التعصب الطائفي ، فاذا رأى في مقالي ما يجعلني إلى طائفة من القائمين على شئون اللغة العربية فليتبرع لي بحسن الظن ، وإن رأى مني انحرافاً عن الصواب فلينسبني الى الخطأ في الاجتهاد ، لا الى الهوى والتعصب

***

وبعد فماذا يعني الأستاذ بالضعف في اللغة العربية ؟ أتراه يعني أن اللغة العربية في هذه الحقبة من تاريخها الأدبي سائرة إلى الضعف ؟ أم هو يعني ضعفها على ألسنة تلاميذ المدارس وطلاب الجامعة وناشئة المتأدبين من كتاب هذا العهد ؟

هذا سؤال أحسب الجواب عنه صريحاً محدداً في مقال الأستاذ ؛ فما من شك في أن اللغة العربية في هذا العهد خير منها منذ ستين عاماً وقبل ستين عاماً ، وإن لم تبلغ بعدُ الهدف الذي ترمي إليه . وأما ضعفها في ألسنة طلاب المدارس وخريجي الجامعة وناشئة المتأدبين ، فأمر لا شك فيه كذلك ولا يحتاج إلى برهان

وإذا تحدد موضوع البحث على هذا الوجه فان علينا مناقشة الأسباب التي يرجع إليها هذا الضعف في اللغة العربية . وأرى الأستاذ الجليل يرجعها إلى أمور ثلاثة تتفرع في النهاية إلى ست مسائل : هي طبيعة اللغة نفسها ، والمعلم ، وبرامج التعليم ، والامتحانات ، والتفتيش ، والمكتبة العربية . وسأقصر حديثي الآن على بعض هذه المسائل دون سائرها ؛ إذ هي عندي أجدر بالعناية وأحق بالنظر . وأولى هذه المسائل هو المعلم ، وأراني أشارك الأستاذ في قوله : « إن معلم اللغة العربية في المدارس على اختلاف أنواعها عليه أكبر واجب وأخطر تبعة ، وبمقدار قوته أو ضعفه تتكون — إلى حد كبير — عقلية الأمة . . . » ولكني مع ذلك لا أشاطره الرأي بأن جزءاً كبيراً من ضعف اللغة يرجع إلى المعلمين . فما المعلمون في مدارسنا — وأنا واحد منهم — إلا أدوات عاملة بغير إرادة : ليس لهم حرية في العمل ولا خيرة في الطريقة ، ولا فكرة في التنفيذ ؛ وإنما يشرع لهم الشارع في وزارة المعارف وعليهم الطاعة العمياء والارادة الخرساء . قد يكون عيباً في المعلم أن ينزل عن رأيه بهذا الهوان ؛ ولكنه يريد أن يعيش ، ومن ورائه المفتش ، والمفتش الأول ، والمراقب ، والوزير ؛ كل هؤلاء عليه عيون لواحظ ، ليس عليهم أن يوجهوه أو يروا له الرأي الصالح بمقدار ما عليهم أن يحصوا عليه مخالفاته لما أرادت الوزارة من الخطة والمنهج والنظام . . .

وأراني وقد بينت للأستاذ موقف المعلم ومكانته في المدارس المصرية ، مسوقاً إلى أن أعتب عليه أن ينال معلمي اللغة العربية ودارَ العلوم بما يشبه أن يكون مصدرُه فكرةً قديمة مستقرة في موضعها من فكرة الكاتب الجليل لا تتصل بموضوع البحث من قريب أو بعيد ! وإلا فأين هذا الموضوع من دعواه بأن خريج دار العلوم أصبح لا يحذق الأدب القديم ولا الأدب الحديث ، ولا يستطيع تغذية الشعب بالأدب الذي هو في حاجة إليه . . . ؟

إننا هنا نتحدث عن ضعف اللغة العربية في المدارس لا ضعفها في الأدب العام الذي يغذي الشعب ويساير النهضة ؛ ولو كان هذا هو الموضوع لاستطاع أن يجد البراهين في كل ما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء منذ نيف وستين عاماً ، وكلها شاهدة بما لدار العلوم من أثر على اللغة في هذا القطر وفي الأقطار العربية عامة ، وما أرى الأستاذ يستدرك فيعترف بأن من خريجي دار العلوم أفذاذاً نابغين يصح أن يكونوا المثل الذي ينشده إلا مجاملة لطائفة من أصدقائه وزملائه في الجامعة ، وما تُغيّر هذه المجاملة

شيئاً من وجه الرأى ، وما تغير شيئاً من الحقيقة التي يلاحظها كل من يقرأ مقالة الأستاذ الكبير ، وهى أنه خرج من البحث فى كفاية خريجى دار العلوم باعتبارهم معلمين ، إلى البحث فى كفايتهم باعتبارهم كتاباً وأدباء ومنشئين أثروا تأثيرهم فى الأدب العام أو لم يؤثروا ، وما هذا مصدر البحث ولا مورده ...

وما أريد أن أطيل فى هذا المتب ، فان هنا (النقطة الشائكة) التى كان همّ الأستاذ أن يتحاشاها ، وكان همى لولا (الواعية الباطنة) التى أقحمتْها فى غير موضعها من مقال الأستاذ الجليل

وأعود إلى ما كنا فيه فأقول إن الأستاذ لم يبلغ إلى الحقيقة فى قوله : إن دار العلوم وغيرها لم تستطع أن تخرج المعلمين الأكفاء الذين تتطلبهم وتتطلبهم اللغة العربية للأخذ بيدها والنهوض بها ومحاربة الضعف الناشىء فيها . وكان وجه الرأى أن يقول : إن وزارة المعارف لم تترك للمعلمين حرية العمل وحرية الرأى فى المناهج للأخذ بيد اللغة العربية والنهوض بها ومحاربة الضعف الناشىء فيها ؛ وذلك بما قيدتهم من قيود لا تدع لهم الخيرة فى أن يفكروا فى الوسائل ولا فى الغايات التى يجب أن يأخذوا بها الناشئة من طلاب اللغة العربية ليبلغوا بهم حيث يريدون

***

ولمنهج التعليم أكبر الأثر بعد ذلك فيما آلت إليه حال اللغة العربية فى المدارس المصرية ، وعلى ألسنة الناشئة من المتأدبين ؛ ولا أعنى بهذا منهج اللغة العربية وحده ، فهذا جزء من كل له أثره فى الثقافة العامة التى توجّه التلميذ وجهته ، وتُعدّه لأن يكون ما يكون فى غده : رجلاً لأمته يحرص على قوميّته وتراث أهله ومقوّمات وجوده ، أو واحداً كبعض من نعرف من شبابنا ، لا يعرف له قومية وليس فيه حِفاظ على ماخلّف الآباء ، ويُضيّع فيما يُضيع من تراث الأجيال لغةَ قومه ودين قومه . والدين واللغة فى تاريخ هذه الأمة شىء واحد ، يقوم كل منهما من الآخر مقام الجزء مما يكمّله ، وهما معاً عماد القومية العربية المسلمة التى نريد أن نطبع عليها ناشئة الغد .

هذا نقد عام لبرامج التعليم فى مدارسنا لا أحاول تفصيله ، وحسبى فى هذا السبيل أن أنبه أستاذى الجليل إلى أن نظر الطلبة فى صميم نفوسهم إلى أن اللغة العربية مادة ثانوية وإن وضعت فى المناهج فى أولها — ليس من عمل المعلم بقدر ماهو من تأثير المنهج الذى يفرض فيما يفرض على التلميذ فى المدرسة الابتدائية برنامجاً طويلاً عميقاً فى اللغة الانجليزية قبل أن يستقيم لسانه فى نطق جملة عربية واحدة . كما أن ضعف الثقافة فى الجمهور فيما يتعلق بالتاريخ الاسلامى والأدب العربى والمعلومات العامة التى تتصل بذلك — ليس مسئولاً عنه معلمو اللغة العربية ، لأن ذلك ليس داخلاً فى برنامج ما يدرسون لتلاميذهم ، وليسوا هم القائمين على تدريس التاريخ الاسلامى ، ولا شىء مما يتصل به من المعلومات العامة فى مرحلة من مراحل التعليم ؛ وقد كان ذلك إليهم منذ سنين ، وكانت حال اللغة يومئذ خيراً منها فى هذه الأيام

وهناك أمر ذو خطر يتصل بمنهج اللغة العربية ذاتها ، ولا مناص من الالتفات إليه ؛ ذلك هو ترتيب المنهج وتوزيعه على سنى الدراسة المختلفة ، ولا أعنى هنا الكم والمقدار ، إنما أعنى الكيف والطريقة .

إن الأستاذ أحمد أمين قد قصر نقده للمناهج على المادة دون الموضوع ؛ فراح يتهم قواعد النحو والبلاغة فى مادتها وتقسيمها دون نظر إلى مؤداها وغايتها وموضوعها من مراحل التعليم

إن الآفة والعلة والداء ليست فى قواعد البلاغة ومصطلحات النحو وفصول الأدب ؛ فما نحن بمسئولين أن نجعل هذه المقاييس اللغوية تسلية وملهاة يتلهى بها التلميذ فى وقت بطالته وفراغه كأنها قصة أو فكاهة ، فما هذا موضعها من العلم ولا مكانها ؛ ولكن العلة والآفة والداء أننا نعلم التلميذ قواعد اللغة قبل أن يعرف شيئاً من اللغة أو يقرأ منها قدراً صالحاً ليعينه على الفهم والمحاكاة ؛ وأننا ندرس له البلاغة قبل أن نقدم له النماذج الكثيرة من الكلام البليغ التى تنبه فيه ملكة النقد قبل أن نعطيه قواعد النقد ومقاييس البيان الرفيع ، وأننا نجرّعه مصطلحات الأدب وفنونه قبل أن يتذوق الأدب نفسه . هنا العلة فلنلتمس لها الدواء قبل أن نفكر فى حلاوته أو مرارته .

إن قواعد النحو ، ومصطلحات الأدب ، وفنون البلاغة ، كفلسفة القصة من القصة : لا ينبغى التفكير فيها والمعاناة فى استخراجها قبل الفراغ من القصة نفسها ، والحكم على

الشيء فرع من تصوره ، كما يقولون ؛ فصوروا للطفل آداب لغته قبل أن يعطوه هذه المقاييس الصماء ليزن بها ما ليس في يده .

إن هذه المناهج بعيدة من الطبيعة بُعد الغاية التي وصلنا إليها من الغاية التي إليها نقصد ؛ وإنما ينبغي حين نريد تعليم اللغة العربية على منهاج صحيح أن نحاكي الطبيعة الخالقة في منهاجها الواضح ؛ والطبيعة قد أملت علينا الطريقة التي يجب أن نأخذ بها كل ناشئ يتلقى لغة من اللغات ، ففرضت عليه أن يمر في أطوار التعليم بثلاث مراحل : السماع والتلقين ، ثم المحاكاة والتقليد ، ثم الابتكار والانشاء . فان الطفل يولد وله صوت وسمع وليس له بيان ، ثم يأخذ في محاكاة الأصوات التي يسمعها ؛ فاذا تكونت له أعضاء النطق أخذ يلقف الكلمات مما يسمع من أهله فيرددها كما سمعها بلهجتها ونبرها ، ثم يتدرج من ذلك إلى التعبير عن حاجاته باللسان الذي يتحدث به مَن حوله ؛ على أن قاموسه في ذلك لا يعدو كلمات قليلة على مقدار وعيه وحفظه وقدرته على التقليد ؛ وكلما تقدمت به السن واتسعت الدائرة التي يضطرب فيها ويستمع إليها ويلقف منها زاد محصوله اللغوي ؛ ثم لا يلبث أن يلم بكل معنى وبكل لفظ وبكل عبارة ، فيتحدث كما يتحدث الناس ، لا يعجزه أن يفهمهم ولا يعجزون ، وحينئذ يتم تمامه اللغوي في اللغة التي يتحدث بها أهله .

هذه هي الطبيعة الملهمة وطريقتها في إعداد الطفل إلى تلقي اللغة والفهم عنها والابانة بها . فأين طرائقنا من هذه الطريقة التي فرضتها الطبيعة على كل إنسان ناطق . . . ؟

وعلى هذا المنهج الطبيعي نفسه تخرج الخالدون من أدباء هذه الأمة ، فبلغوا ما بلغوا وخلفوا لنا هذا التراث الباقي على الزمن من الشعر والأدب . وطريقة الأخذ عن الرواة هي طريقة الطبيعة نفسها ، وهي هي كانت كل ما يؤهل الأديب أو الشاعر إلى التبريز في الأدب والاجادة فيه . وما كان الأصمعي وأبو عبيدة والقالي وغيرهم ليعلموا تلاميذهم أول ما يعلمونهم — المحادثة والانشاء والقواعد والتطبيق ، إنما كانت دروسهم في حلقات الدرس والرواية هي هذه الأمالي الباقية من جيد الشعر والخطب والأمثال والقصص ، أما النحو والصرف وقواعد البلاغة فكانت شيئاً من وراء ذلك لا ينظر إليه إلا عند الحاجة ، وهي اليوم عندنا أول الطريق وآخره

وأمامنا الأمثال في كل جيل وفي كل عصر من عصور العربية ترشدنا إلى الطريق التي يجب أن نسلكها في تعليم العربية ، ولكننا نغمض عنها أعيننا ونضرب في البيداء ، ومع ذلك ما ننفك نسأل أنفسنا :

« أين ومتى نبلغ الغاية ؟ »

وهل بلغ البارودي وحافظ وأضرابهما ذلك المبلغ من الشعر والأدب بالقواعد والتطبيق ومعالجة الانشاء ، أو بالاطلاع والرواية والحفظ من مأثور النظم والنثر ؟

ينبغي أن نعلم العربية على الطريقة التي يتعلم بها الطفل أن يتكلم ؛ فلتكن دروس العربية الأولى أن نتحدث إلى التلميذ ثم نسأله أن يتحدث ، وأن نحمله على المطالعة ثم نطلب إليه أن يكتب ، وأن نقدم له الغذاء من متن هذه اللغة ومن أساليبها في أقاصيص صغيرة مسلية نقصها عليه بلسان عربي سلس الأداء واضح النبرات مفهوم المعنى ، ثم نطلب إليه أن يعيد ما سمع بلغة كالتي تحدثنا بها إليه ولا تخرج عن قاموسه الذي نعرفه كلمة كلمة لأننا نحن الذين أمليناه عليه كلمة كلمة في هذه الأحاديث والقصص التي رويناها له ، ولا نفتأ كل يوم نزيد في معجمه اللغوي كلمات وأساليب فيما نتحدث به إليه ؛ فاذا بلغنا به مبلغاً ما بهذه الوسيلة فلنفكر حينئذ في تلقينه قواعد اللغة وموازين الكلام الصحيح لا على أنها قواعد جديدة يجب أن يدرسها ، ولكن على أنها جزء غير مسموع من الكلام الذي سمع ، ونطق غير ملفوظ من الكلام الذي تحدث به . وهنا نقطة يجب ألا تغيب عن أحد من المشتغلين بالتعليم ، هي أن هذا ليس واجب معلم اللغة العربية وحده ، ولكنه واجب عام ينتظم المعلمين جميعاً ؛ وإلا كان عبثاً ما يحاوله معلم العربية ، فما يعالج هو تقويمه من ألسنة التلاميذ بالقدوة والمثال تفسده الرطانة الأعجمية في لسان باقي المعلمين

هذا هو الأمثل بأن يؤدينا إلى الهدف الذي نريده لو أخلص العاملون ، فليجربه من شاء ثم يحدثني عن النتيجة ؛ فأنا نفسي قد حاولت هذه الطريقة في بعض الفرق (على غفلة من المفتش وغفلة من المنهج ...) فما أدعو إليها إلا مقتنعاً بها مؤمناً بنتيجتها

* * *

والآن وقد وصلت إلى هذه النقطة من الموضوع ، أراني

مع الأستاذ أحمد أمين فى الحديث عن المكتبة العربية ؛ فلو أننى زعمت له ولنفسى أن عندنا المعلم الكفء الموهوب الذى لا يمل الحديث مع تلاميذه بلسان عربى مبين جذاب ليزودهم بالغذاء المرىء والنموذج الصالح من متن اللغة وأساليبها ، لما وسعنى الزعم بأن عندنا الكتاب الذى يصلح أن يكون لهذا التلميذ أستاذاً فى غيبة أستاذه ؛ يعطيه ما يعطيه المعلم من متن اللغة وأساليبها فى عرض جذاب يحبب إليه مطالعته والتزود منه ثم يحمله من بعد على أن يحرص على المطالعة لتكميل ثقافته ويجعل لها وقتاً من وقته طوال حياته فى زمن التخرج وبعد التخرج

ولو أننى زعمت أن عندنا هذا الكتاب لكذبتنى وزارة المعارف التى لا تعطى تلاميذ مدارسها الابتدائية إلا كتابا واحداً للمطالعة العربية ألفه مؤلفه فى القرن الماضى ... وما زال حيث كان ! على حين تعطى هذا التلميذ نفسه بضعة كتب للمطالعة الانجليزية قد تبلغ ستة كتب أو سبعة فى السنة الدراسية ، ثمن الكتاب منها يبلغ ضعف ثمن كتاب المطالعة العربية ؛ وهى دقة بالغة فى تنفيذ سياسة الاقتصاد ..!

على أن هنا حقيقة لا ينكرها أحد ولا يغفل عنها أحد ، هى أن المطالعة عند كل المشغوفين بالمطالعة — عادة لازمة أكثر مما هى وسيلة من وسائل العلم ، فاذا لم يعود الطفل أن يقرأ منذ حداثته فهيهات أن يمكن حمله على المطالعة المثمرة من بعد ؛ وهنا سر انصراف شبابنا عن المطالعة والأدب إلى ذلك اللغو وتلك الدعاوى الفارغة التى تملأ أفواههم عن الأدب والتجديد .

ومن ثمَّ يجب أن نبحث أولَ ما نبحث فى نقص المكتبة العربية للأطفال ، ثم من يليهم ، ثم من يليهم ، إلى أن نبلغ الطبقة التى نجد فيها من يقرأ أمثال الأغانى والأمالى وعيون الأخبار والطبرى وغيرها من تراثنا الأدبى الذى لا نجد من يقبل عليه إلا القليل من قراء العربية

وإننى أؤكد للأستاذ أحمد أمين أن المكتبة العربية لم تضعف هذا الضعف لعجز فى المعلمين أو نقص فى كفاية القائمين على شئون اللغة العربية ، ولكنْ وسائل التخذيل وقلة المكافأة...

وقد عالجت طائفةٌ غير قليلة من أدباء العربية هذا النقص فى مكتبة الأطفال ، وكان خليقاً أن يبلغوا بها مبلغاً تطمئن إليه ، لو لا قلة المكافأة وسوء التقدير ، وأنا نفسى ما أزال أعانى أزمة عنيفة بينى وبين نفسى من جراء محاولة من هذه المحاولات لاصلاح مكتبة الطفل ، صرفتْنى عن العمل لغيرها وقطعتْنى عن الجو الأدبى الذى كنت أعيش فيه والذى كنت أهيئ نفسى فيه لمنزلة فى الغد هى أجدى علىّ وأنفع ، وجعلتْنى غرضاً لسهام اللوم من أصدقائى الذين كانوا يحسنون الظن باستعدادى الأدبى . والأستاذ الزيات صاحب الرسالة أول هؤلاء اللائمين ، مع إعجابه بما أقدم للطفل العربى من أدب سائغ . وها أنذا ما أزال فى المحاولة ، وما زلت أطمع فى أن أبلغ بالقصص المدرسية — التى أصدرها مع زميلين من زملائى — مبلغاً أقتنع فيه بأنى قد أسديت يداً إلى المكتبة العربية وأحسبنى قد سمعت مرة من الأستاذ أحمد أمين ثناءً على عملنا كان خليقاً بأن يحملنى على الثبات ومضاعفة الجهد فى هذه المحاولة ؛ ولكن عملاً كهذا ياسيدى لا يجزئ فيه أن أسمع كلمات الثناء وعبارات التشجيع وأنا أبذل فيه من أعصابى ومن مالى وعمرى ولا مكافأة ولا تعويض . أفيحسب أستاذنا الجليل أن سعيد العريان ومعه مائة مثله من معلمى اللغة العربية فى مدارس الحكومة يستطيعون أن يسدوا هذا النقص فى المكتبة العربية ووزارة المعارف لا تحاول أن تشعرهم من قريب أو بعيد بأن لهم عليها حقاً أكثر من : أحسنتَ وأجدتَ ولله أنت ... !

أم تحسب أحداً يُقدم على أن يبذل لمثل هذا العمل جنيها لعله أحوج إليه فى بيته ، وهو يعلم أن وزارة المعارف لا تكافئ الكتاب والمؤلفين إلا أن يكونوا مفتشين أو أشباه مفتشين ؛ حتى لو أن معلماً صغيراً (مثلى . . . !) أنشأ عملاً خليقاً بأن يُنتفَع به ، أسرع إلى محاكاته واحد من هؤلاء فيكافأ على التقليد ويضيع العمل الجيد على منشئه بلا مكافأة ولا تعويض...؟

ياسيدى ! والله ما كان فى بالى أن أشكو ، ولا أردت أن يكون الحديث عن نفسى ، وليس من طبعى أن أقول : ليتنى وليت الناس ! ولا كان همى أن ألتمس المعاذير المقصر والمجيد ؛ ولكنك رغبت إلى كل ذى رأى أن يدلى برأيه ، فهذا ما دفعنى إلى ذاك ، وأرجو ألا أكون على حيد الطريق فيما كتبت ، أو أن أزايل حسن الظن من نفسك ، ولعل لى عودة قريبة إلى الموضوع والسلام عليك .

(طنطا) محمد سعيد العريان

في القديم والجديد

كلمة وكليمة (١)

للرافعي فقيد اللغة والأدب

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

... إن الخلاف بين ما يسمونه القديم والجديد ليس بخلاف على جديد ولا قديم ، ولكن على ضعف وقوة ؛ فإن قوماً يكتبون وينظمون ، ولكن لم تقسم الفصاحة والبلاغة على مقدار ما يطيقونه من ذلك ، ولا يتسع الصحيح لآرائهم في اللغة والأدب ؛ وقد أرادوا أن يسموا كل ذلك من حيث ضاقوا ، ويطاولوه من حيث تقاصروا ، وينالوه من حيث عجزوا ، فظنوا بالأمر ما يظن إنسان يمشي على الأرض ويعرف أنها تدور فيؤول ذلك بأنه هو مدير الأرض على محورها بحركة قدميه ... نحن نقول : أسلوب ركيك ، فيقولون : لا بل جديد !! ونقول : لغة سقيمة ، فيقولون : بل عصرية !! ونقول : وجه من الخطأ ، فيقولون : بل نوع من الصواب !!

* * *

... إننا لا نعرف قديماً محضاً ولا جديداً صرفاً ، ولا نقيم وزن أحدهما إلا بوزن من الآخر إذا أردنا بهما سنة الحياة ، وأنت لم تجد حياً منقطعاً مما وراءه ؛ بل أنت ترى الطبيعة قيدت كل حي جديد إلى أصلين من القديم لا أصل واحد هما أبواه ، فنهما يأتي ، ومنهما يستمد ، وهما أبداً فيه وإن كان على حدة

* * *

... المذهب القديم هو أن تكون اللغة لا تزال لغة العرب في أصولها وفروعها ، وأن تكون هذه الأسفار القديمة التي تحويها لا تزال حية تنزل من كل زمن منزلة أمة من العرب الفصحاء ، وأن يكون الدين العربي لا يزال هو هو كأنما نزل به الوحي أمس ، لا يفتننا فيه علم ولا رأي ، وأن يأتي الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين ، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً ...

* * *

. . . سألت بعضهم ما هو هذا الجديد الذي تحامون عنه ؟ قال : هو ما يكتب به في الصحف . قلت : فإن فيما يكتب الضعيف والساقط والمرذول ثم ما هو الى الجزالة والفصاحة ، ثم ما يلتحق بجيد الكلام ، فأي هذه تريد ؟ وأيها ليس قياساً من أصله العربي المعروف ؟ أفتجعلون النقص مذهباً من كاله ثم لا تكتفون بخطأ واحد وتدّعون أن الكمال في نفسه يجب أن يعدّ مذهباً من النقص ؟ أم الجديد هو ما يكتب به في الصحف ، تعني لأنك أنت تكتب في الصحف . . . . ؟

* * *

التجديد في الأدب إنما يكون من طريقتين : فأما واحدة فابداع الأديب الحي في آثار تفكيره بما يخلق من الصور الجديدة في اللغة والبيان ، وأما الأخرى فابداع الحي في آثار الميت بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثة ، وأساليب الفن الجديدة . وفي الابداع الأول إيجاد ما لم يوجد ، وفي الثاني إتمام ما لم يتم ، فلا جرم كانت فيهما معاً حقيقة التجديد بكل معانيها ، ولا تجديد إلا من ثمت ، فلا جديد إلا مع القديم . . .

* * *

لم أقرأ إلى يوم الناس هذا في معنى هذا « الجديد » كلاماً يبلغ أن يصور منه برهان أو تؤلف منه قضية صحيحة ، وكل

---

(١) تحت هذا العنوان كان المرحوم الأستاذ الرافعي ينشر على قراء الرسالة الكرام كلمات جامعة تدور على أغراض مختلفة من الأدب والدين والأخلاق والاجتماع ، فكان موقعها في النفوس موقع الاعجاب البالغ والتقدير الكبير لكل آثار الرجل حتى أنها ترجمت إلى الفرنسية ونشرت في صحف القوم هناك ...

ولما كنا قد تتبعنا الرافعي في كل ما كتب ، واستوعبنا آثاره بالبحث والنظر ، فقد رأينا أن نصل ما انقطع ، فنقدم للقراء ما نعرفه للرجل من مثل تلك الكلمات التي كان يرسلها عليه رحمة الله ؛ إلا أننا آثرنا أن نزجيها عقوداً كل عقد ينتظم حباته سلك من المعنى المشترك ، والفرض المتفق ، على أننا لسنا على رأي الرجل في كل ما تنقل عنه ، وإنما نريد أن نقرب للقراء آراءه ، وأن نقف بهم على مجمل فلسفته ، والله نسأل أن يجعله عملا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتغمد الرافعي بفيض رحمته العميم ؟ (فهمي)

أقاويلهم ترجع إلى ثلاثة أبواب : جديد ، ومجدِّد ، ولنجدد . فأما الأول فهو عندهم تقبيح القديم والزراية عليه والتنفير منه ، وأما الثانى فهو العائب والشاتم والمتهزِّئ ، وأما باب قولهم « ولنجدد » فهو لا يزال إلى الآن مقصوراً على قول كل واحد منهم للآخر : « ولنجدد » ...

* * *

... أنا والله لا أعرف أهؤلاء القوم يجدون أم يسخرون ! ولكن الذى لا أجهله أن فى بعض الناس أرواحاً وأمزجة انطبعت فيها صور الاجتماع الأوربى بما يحوى من فضائله ورذائله لأن هذه نتائج تلك ما منها لهم بد — فتريد هذه النفوس الرقيقة الجيلة !! أن تنسخ الرسم الاسلامى الشرقى وتقر كل ذلك الأوربى فى مكانه . تلك هى نزعة التجديد . . . !!

... لقد رأيت لأصحاب « المذهب الجديد » أصلا فى تاريخ الأدب العربى كانت جذوره ممن انتحلوا الاسلام وهم يدينون بغيره ، وممن كانوا يدينون به وتزندقوا فيه ، حتى قال الجاحظ فى بعض رسائله يعنى هؤلاء وأولئك : « فكل سخنة عين رأيناها فى أحداثنا وأغبيائنا !! فمن قبلهم كان أولها »

ورحم الله أبا عثمان ، إن التاريخ ليعيد نفسه اليوم « بسخنة عين جديدة » ...

* * *

... إنهم إن أرادوا « بالمذهب الجديد » أن يكتب الكاتب فى العربية منصرفاً إلى المعنى والغرض تاركا اللغة وشأنها متعسفاً فيها آخذا ما يتفق كما لا يتفق ، وما يجرى على قلمه كما يجرى ، معتبرا ذلك اعتبار من يرى أن مخه بلا غلاف من عظام رأسه ، وأن عظام رأسه كعظام رجليه ! وأن أصابع قدميه كأهداب عينيه !! وأن مطلق التركيب هو مطلق النظام والمناسبة !! وأن اللغة أداة ولا بأس بالأداة ما اتفق منها ، ولا بأس أن ينزع الجراح منزعا من جلد العليل بأسنانه أو بأظافره أو بنصل الفأس ... ما دامت معقمة وما دام ذلك بعينه هو فعل المبضع لا يزيد المبضع عليه إلا فى الدقة . .

إن أرادوا بهذا وأشباهه ما يسمونه المذهب الأدبى الجديد قلنا : لا ، ثم لا ، ثم لا ، ثلاث مرات . . .

* * *

أظن أن اللغة العربية لن ترتفع منزلتها عند هؤلاء الحمقى المجددين إلا إذا أصبحت لغة فرنسا أو انجلترا ... فيومئذ يكون الجاحظ جاحظاً بقوة الأسطول ، وعبد الحميد بقوة الجيش ، وابن المقفع بسلاح الطيران ، إذ هم وأمثالهم أسلحة التاريخ التى يقاتل بها مجد الأمة ليغلب وينتصر ، وهذا بعينه هو من دليلنا على أن هؤلاء الخمسة أو الستة المجددين هم خمسة أو ستة مجانين فى أمراض العقل الاجتماعى . . .

« اختارها وأخرجها »

محمد فهمى عبد اللطيف

إلتقاء النجف بالأزهر

رأى العلامة الشهرستاني

للأستاذ عبد المنعم خلاف

العلامة الكبير السيد هبة الدين الشهرستاني رجل من رجالات العراق الذين يشار إليهم، ويعتمد على رأيهم في شئون الدين والدولة، تولى وزارة المعارف العراقيـة لأول عهد البلاد بالاحتلال الانجليزي، فكانت له فيها مواقف جريئة مع مستشارها الانجليزي لا يزال النـاس يتحدثون بها ويثنون عليها . وكان العامل الأول على نشر التعليم بين المسلمين بعد أن كانوا يعزفون عنه نظراً للصبغة الاحتلالية التي كانت تسيطر عليه . وهو فوق ذلك صاحب قلم بارع في سرد حقائق الاسلام وجلاء مآثره ، يشهد بذلك كتبه العديدة وخصوصاً كتابه « المعارف العالية » الذي نحا فيه منحى عصريا حميداً يحبب إلى الشباب قراءته ، وهو محاضر طلق اللسان لين الصوت وقور المظهر ، وديع النفس تشعر بأن فيضاً من سمو الروح وجلال الخلق يغمرك وأنت في مجلسه . وهو من كبار مجتهدي إخواننا الشيعة ، وإن كان لسمو خلقه وغزارة علمه واتساع أفقه لا يختص بفريق دون فريق .

وكان على رأس الرعيل الأول من علماء الاصلاح في النجف الأشرف أهاب بعلمائه وطلابه سنة ١٣٢٨ هـ في مجلته « العلم » أن يرموا بأبصارهم إلى ما وراء أسوار معاهدهم الدينية من شئون الحياة والعلوم العصرية ، كما أهاب الأستاذ الامام محمد عبده برجال الأزهر . وقد صار له الآن تلاميذ ومريدون يتولون نشر دعوته وتعميم طريقته

وقد كان من حسن حظي أن أتيحت لي فرصـة زيارته فملأت بصري بصورته الجليلة . وشيخوخته الوقور التي ذكرتني بالصور الذهنية لعلماء بغداد الأولين ، بعد أن ملأت سمعي بذكره العاطر وثناء الناس عموما عليه . فصدق العيان الخبر

وكان لا بد أن يتطرق الحديث إلى شئون المسلمين والآمال في المسـتقبل الذي تحفز التاريخ ليكتب فيـه صفحة جديدة للنهضة الدينية والدنيوية في ديارهم

وهو يرى أن الوحدة الاسلامية المنشودة التي عهد لها المخلصون من رجال الاسلام ويدعون إليها لا يمكن أن تتم إلا بالتقاء النجف بالأزهر بتبادل الزيارات بين العلماء والبعثات بين الطلاب ، وإطلاع رجال كل من المعهدين على الأنظمة في الآخر

وهذا رأي لا ريب سديد وقريب التحقيق يجب أن يلتفت إليه العاملون لجمع الشمل وتحقيق الوحدة . أنقله إلى مسامع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر المصلح الشيخ المراغي الذي تركزت فيه آمال النهضة الاسلامية ، وسار الأزهر في عهده خطوات موفقة إلى الغاية التي ينشدها الناس من رجال الدين

والواقع أن الخلاف بين الشيعة وأهل السنة الذي يجسمه العوام والأغفال ، وينفخ فيه أعداء الطائفتين جميعاً من وراء ستار ، لا يمكن أن يزول إلا إذا رأى العوام رجال الدين من الفريقين يتآخون ويتبادلون الزيارات ويتعلم كل منهم على الآخر في أخوة وصفاء ، فالعوام هم الذين يعظمون الصغائر ويكبرونها ، أما العلماء من الفريقين فهم أفقه وأعقل من أن يجدوا مواضع الخلاف القليلة محلا لجفاء وهوة تفصل بين أهل التوحيد

ولقد وجدت هذه الرغبة في التوحيد متجلية عند علماء الشيعة في مواقف عدة ، فالسيد محمد الحسين آل كاشف الغطاء يدعو إليها في المؤتمر الاسلامي بالقدس ، وها هوذا العـلامة الكبير السيد هبة الدين الشهرستاني رجل الاصلاح ، يرسم الطريق ويضع الخطة لها ويمد بمواصلة العمل في سبيلها على رغم شيخوخته ، والأسـتاذ حسين مروة يدعو إليها منذ شهرين في الرسالة .... كل هذا يبشر باقتراب الموعد وموآتاة الظروف ، ولم يبق إلا أول العمل فهيا .

عبد المنعم خلاف

شخصيات مجهولة فى الأدب العربى

إبراهيم بن سهل الاشبيلى

بقلم محمد الأمين بن محمد الخضر الشنقيطى

كثيراً ما رأيت من بعض الأدباء جهلاً شائناً بذلك الشاعر المطبوع إبراهيم بن سهل ؛ نخدمة للأدب ، وإحياء لذكره ، أتقدم بهذه الكلمة الموجزة إلى صحيفة العلم و(رسالة) الأدب ، راجياً أن أتبعها أخرى إن سمحت لى ظروفى وكان فى صفحات الرسالة متسع

نسبه ، ميلاده ، وفاته

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبى بعيش بن سهل الاشبيلى ، نسبة إلى إشبيلية مدينة من أعظم المدن الأندلسية . ولد سنة ستمائة وتسع عشرة هجرية ، ومات غريقاً فى البحر وهو ابن أربعين ، سنة ستمائة وتسع وخمسين هجرية كما ذكره أبو الحسن الخزرجى

قال صاحب نفح الطيب : غرق وهو ابن أربعين سنة فى البحر . وقيل جاوز الأربعين . ولما غرق قال فيه بعض الأكابر : عاد الدر إلى وطنه . وذكر مالك بن المرحل فى غرقه قصة طويلة ، خلاصتها أنه كان من كتاب أبى على بن خلاص صاحب سبتة فأرسله مع ابنه إلى المستنصر ملك تونس فغرقا فى البحر لشدة هيجانه . ولما بلغ المستنصر غرق ابن سهل قال : عاد الدر إلى وطنه

اسلامه

كان يهوديا وأسلم . وقد اختلف العلماء والمؤرخون فى صحة إسلامه ، فمن قائل إن إسلامه كان ظاهراً وباطناً ، ومن قائل إنه فى الظاهر فقط . ولا بأس أن أنقل هنا بعض أقوال الفريقين . قال محمد الصغير الأفرانى المراكشى : كان يهوديا ثم من الله عليه بالدخول فى الملة المحمدية وحسن إسلامه . وقد مدح النبى صلى الله عليه وسلم بقصيدة بارعة ، قال أبو حيان وقفت عليها ، وهى من أبدع ما نظم فى معناها . وقال المزنى : كان يتظاهر بالاسلام ولا يخلو من قدح واتهام . وقال ابن مرزوق : صح لنا من أدركنا من مشائخنا أنه مات على الاسلام . وقال صاحب نفح الطيب : اجتمع جماعة مع ابن سهل فى مجلس أنس فسألوه — لما أخذت منه الراح عن إسلامه — هل هو فى الظاهر والباطن أم لا ؟ فأجابهم : للناس ما ظهر ولله ما استتر . وقال ابن سعيد القيسى فى كتابه القدح المعلى : كتبت إلى ابن سهل استدعيه إلى أنس بثلاث أبيات فأجابنى سراعا بأبيات آخرها

سألفها إلف العتيق كتابه ولا أشتهى ورداً سواها الدى الخمر

فلما وصل أظهرت استحسان سرعة جوابه غير أنى أنكرت عليه منزع بيته الأخير فقال : أليس فى الجنة نهر خمر ؟ فقلت : بلى فقال : حسبي ، لا أبغى به بدلا . فقلت : بحرمة ما بيننا إلا ما أصدقتنى هل أنت على دين أسلافك ، أم على دين المسلمين ، وأزلت عنى شك الناس فيك . فقال : للناس ما ظهر ولله ما استتر . وقال فى عنوان الدراية : سمعت شيخنا أبا الحسن الأندلسى يقول : شيئان لا يصحان : إسلام ابن سهل وتوبة الزمخشرى من الاعتزال . وقد استدل الأفرانى المراكشى على حسن إسلامه بقوله :

تسليت عن موسى بحب محمد
ولولا هدى الرحمن ما كنت أهتدى
وما عن قلى قد كان ذاك وإنما
شريعـة موسى عطلت بمحمد

جاعلا أنه قصد بموسى الكليم عليه السلام ، وبمحمد نبينا عليه الصلاة والسلام ، وعندى أنه لا دليل فى هذين البيتين (رغم اعتقادى حسن إسلامه) ، وأن موسى المذكور غلام كان يعشقه ، وذكر اسم محمد تورية ، وقد جاء ذكر موسى هذا فى شعره كثيراً ، من ذلك قوله :

كسانى موسى من سقام جفونه
رداء وأسقانى من الحب أكؤسا

وقوله :

ليس ثارى على موسى وحرمته
بواجب وهو فى حل إذا وجبا

وقوله :

أشاعوا أننى عبد لموسى نعم صدقوا على بما أشاعوا

وفى بيتيه الآتيين فصل القول أنه ممشوقه لا الكليم عليه السلام

موسى تنبأ بالجمال وإنما هاروت لا هارون من أنصاره
إن قلت فيه هو الكليم نخده يهديك معجزة الخليل بناره

شهادات العلماء فيه

قال ابن القاضى فى كتابه درة الحجال : كان ابن سهل ممن انتحل صناعة القريض فافتن بها وتصرف ، وعنى بمالم الأدب فوعى وصرف ، إلى أن بلغ الغاية فى الشعر فصار فيه أوحد ، لا ينعت ولا يحد . وقال أبو الحسن الخزرجى فى كتابه إعلام الزمن : إبراهيم بن سهل كان شاعر زمانه أسلم بعد يهوديته ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة بديعة . وقال مالك ابن المرحل : كان ممنا ابن سهل وقد حسن إسلامه ، ولازم صلاة الجماعة ، ونظر فى الأدب فنبغ فى الشعر . وقال الافرانى : وإن من تتبع مقطعاته علم أن له خبرة واسعة بفن العربية كقوله :

أمومى أيا كلى وبعضى حقيقة
وليس مجازا قولى الكل والبعضا
خفضت مقامى إذ جزمت وسائلى
فكيف جمعت الجزم عندى والخفضا

وفى هذين البيتين تنكيت على أبى القاسم الزجاج إذ قال فى جملة : (وإنما قلنا بدل الكل والبعض مجازا) . وسئل بعض المغاربة عن السبب فى رقة نظمه ، فقال : لأنه اجتمع فيه ذلان : ذل العشق وذل اليهود

عفافه

وقد كان فيما يظهر من كلامه عف الازار ، وبيته المشهور من أعظم الأدلة على ذلك وهو :

وأبى عفافى أن أقبل ثغره والقلب مطوى على جمراته

وقوله :

بتنا نشعشع والعفاف نديمنا خمرين من غزلى ومن كلماته

وقد ذهب ابن القاضى فى شرحه لأبيات الذهبى لما تعرض لابن سهل إلى أن هذا من صناعته لا طبيعته ، ولعمرى إن هذا منه توريك وتحامل ؛ وإلا فأى مانع من أن يكون العفاف فيه سجية ؟

شعره :

وله ديوان شعر مشهور ، وقفت عليه وهو فى غاية الجودة ، ولا بأس أن أثبت هنا من شعره ما يرخص الدرر ، ويكون فى هذه الأسطر بمثابة الغرر . من ذلك قوله :

مضى الوصل إلا أمنية تبعث الأسا
أدارى بها همى إذا الليل عسعسا
أتانى حديث الوصل زوراً على النوى
أعد ذلك الزور اللذيذ المؤنسا
ويا أيها الشوق الذى جاء زائرا
أصبت الأمانى خذ قلوباً وأنفسا

وقوله :

قالوا سيسلبك العذار سفاهة
وحصاد عمرى فى نبات عذاره
إن لم أمت قبل العذار فمندما
يبدو أيسلم عاشق بفراره
مثل الغريق نجا فوافى ساحلا
فاذا الأسود روابض بجواره
إن العذار صحيفة تتلو لنا
ما كان صان الحسن من أسراره

وقوله :

يا حسنه والحسن بعض صفاته
والحسن مقصور على حركاته
صافحته والليل يذكى تحتنا
نارين من نفسى ومن وجناته
أوثقته فى ساعدى لأنه
ظبى خشيت عليه من نفراته
والقلب يرغب أن يصير ساعدا
ليفوز بالآمال من ضماته

وقوله :

نظر جرى قلبى على آثاره خلع العذار فلاثماً لمثاره
يا وجد شأنك والزمان وخلنى
ما المرء مأخوذ بزلة جاره

دنف يغيب عن الطبيب مكانه
لولا ذبال شب من أفكاره
للدمع خد فوق صفرة خده
فتراه مثل النقش فى ديناره

وقوله :

ردوا على طرفيَ النوم الذى سلبا
وخبرونى بقلبى أية ذهبا
علمت لما رضيت الحب منزلة
أن المنام على عينى قد غضبا
فقلت واحربا والصمت أجدر بى
قد يغضب الحسن إن ناديت واحربا

وقوله :

يقولون لو قبلته لاشتفى الجوى
أيطمع فى التقبيل من يعشق البدرا
ولو غفل الواشى لقبلت نعله
أنزهه أن أذكر النحر والثغرا
ومن لى بوعد منه أشكو بخلفه
ومن لى بوعد منه أشكو به الغدرا
وما أنا ممن تحمل الريح شوقه
أغار حفاظاً أن أبوح له سرا

وقد أبدع فى فنون البيان وأتى فى شعره منها بالعجب العجاب . فمن حسن توجيهه قوله :

لقد كنت أرجو أن تكون مواصلى
فأسقيتنى بالبعد فاتحة الرعد
فبالله برد ما بقلبى من الجوى
بفاتحة الأعراف من ريقك الشهد

وله موشح كبير ، أبدع فيه وأجاد ، تبارى العلماء فى شرحه وإظهار معانيه ودرره ، برهن فيه على سعة باعه فى العربية والصناعة الشعرية ، أوله

هل درى ظبي الحمى أن قد حما   قلب صب حله عن مكنس
فهو فى جر وخفض مثلما   لعبت ريح الصبا بالقبس

ولعلى فى فرصة أخرى أتمكن من شرح بعض أبياته وإبراز مكنوناته والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

موت صديق

للكاتب الفرنسى Xavier de Maistre

من كتابه « رحلة حول غرفتى »

ترجمة الأستاذ خليل هنداوى

سعيد ذلك الذى يجد صديقاً يلائمه منه قلبه وروحه . صديق يجمعه به وحدة ذوق ، وألفة عاطفة ، وجامعة معرفة . صديق لا يقلقه طمع ولا تسيره مصلحة . صديق يؤثر ظل شجرة على ترف مدينة . سعيد من يملك صديقاً !

كان لى صديق اختضره الموت منى فى عنفوان صباه ، ومطلع عمله ، فى المهد الذى أصبحت صداقته حاجة لقلبى شديدة . كنا نتآزرمعاً على أعمال الحرب ، ولم يكن لنا الأغليون واحد نتناوبه وكأس واحدة نشرب بها ، وسقف خيمة واحدة يظللنا . فى الظروف التعسة كان لنا ذلك السقف حيث كنا نحيا معاً وطناً جديداً . رأيته ينجو من كل مهالك الحرب ويسلم من أهوالها كأنما الموت كان يدخر أحدنا للآخر ، وكأنما نفدت نباله التى صوبها إليه دون أن تصيبه . ولكن هذا لم يكن إلا ليجعل فقده — عندى — أكثر ترويعاً . ولقد كان فى قعقعة السلاح والذهول الذى يملك النفس من جراء الأخطار ما يحول دون بلوغ آلام نزعه إلى عاطفتى وإحساسى . وموته قد يكون نفعاً لوطنه وشؤماً على أعدائه . لو كان ذلك لكان أسفى عليه قليلاً ، ولكنى فقدته فى وسط المسرات ورأيته يحتضر بين ذراعىَّ فى حين كانت تقوى صحته وتتوثق روابط مودتنا فى أيام الراحه والسكون

آه إننى لن أتعزى عن فقده ، وإن ذكراه لا تبرح قلبى ولا تحيا إلا فى طواياه . وإنها لن تكون فى الذين كانوا يحيطون به أو الذين حلوا محله . هذه الفكرة تجمل وقع فقده أنأى على النفس وآلم للقلب . وهذه الطبيعة التى تتراءى لنا خلية لا تبالى حظ الناس تضع رداء ربيعها الزاهى وتتزين بأبهى حال جمالها

(البقية على صفحة ١١٤٢)

الشعر على اللسان النبوى

للسيد جلال الحنفى

الذى لا زلنا نسمعه ونقرأه بحيث بات من البديهيات التى لا يُتجادل فيها ، وأصبح من غير المحمود الخروج عليه : أن الشعر لم يكن يلتئم على لسان النبى صلى الله عليه وسلم . ويقال إن النبى أنشد قول طرفة المشهور على هذا الشكل :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار

فقيل له : ليس البيت كذلك يارسول الله ، وإنما هو هكذا :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

فرجع صلى الله عليه وسلم منشداً للبيت كما أنشده من قبل ، ولم يتمكن من إنشاده بلفظه

وإنى لأعجب منتهى العجب كيف يسوغ لأحد أن يتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا العىّ الذى ينقص أى امرئ إذا نسب إليه ، وناهيك بالنبى وهو أفصح من نطق بالضاد ، وصاحب الكلم الجوامع

ولا أريد هنا أن أدلى بالنصوص التى يعلم منها أن النبى رغب فى الشعر وحث عليه وافتخر ببعض رجاله ، ودرج على ذلك بقية من أصحابه ، وإنما أعرض هنا طائفة من المواطن التى تقيم الحجة على أن ما يسند إلى الرسول غير صحيح ، وأنه أنشد بضعة أبيات فى أحوال متعددة من دون أن يخرجها عن سننها

فلقد أنشد صلى الله عليه وسلم فى حفر الخندق من شعر عبد الله بن رواحة :

هذا الحمال لا حمال خيبرْ هذا أبرُّ ربَّنا وأطهرْ

ولكن ابن شهاب الزهرى قال تعليقاً على هذا تخلصاً من الحجة التى تقع على القاعدة الموضوعة فى هذا الأمر ، قال :

« ولم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت »

والحقيقة أيضاً خلاف هذا إذ أنه صلى الله عليه وسلم أنشد فى حفر الخندق أيضاً لابن رواحة على ما رواه البخارى ومسلم والمؤرخون(١) :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنــة أبينا

وأنشد رسول الله يوم الخندق أيضاً(٢) :

بسم الإلــه وبه هدينــا ولو عبدنا غيره شــقينا
يا حبذا رباً وحب دينا

وأنشد عليه الصلاة والسلام لأمية(٣) :

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد

وأنشد فيما أنشد(٤) :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الذهب الأحـ ـمر ما حلت بواديكم
ولولا الحبة السمرا ء لم تسمن عذاريكم

وكان صلوات الله عليه كثيراً ما ينشد لعنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

وينشد للبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وإنى لأخجل فى تحقيق مثل هذا الأمر والدفاع عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما علقوه به من هذا العجز عن النطق بالبيت على وزنه من حيث لاحكمة هنالك ، ولولا أن تكون هذه المسألة ضاربة أطنابها بين المعتقدات لما أسلكت قلمى فى سبيل نقدها

(بغداد) جلال الحنفى
خطيب جامع عطاء

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤ : ٩٦)
(٢) البداية والنهاية (٤ : ٩٧)
(٣) خزانة الأدب للبغدادى (١ : ١٢٠)
(٤) نقد العلم والعلماء لابن الجوزى (ص : ٢٤)

بعض أسباب الضعف
فى اللغة العربية
للأستاذ عويس القرنى

كتب الأستاذ الكبير أحمد أمين فى أسباب الضعف فى اللغة العربية ، ودعا الباحثين أن يدلوا بآرائهم فى ذلك ليتبين الأمر على وجهه ونصل إلى علاج ناجع لترقيتها

وحرص الأستاذ المصلح على ترقية اللغة العربية هو الذى دعاه إلى فتح باب البحث ، ولذلك نتقبل نقده قبولا حسناً ؛ والأمر يهم مدرسى اللغة العربية ، إذ أن حديث الأستاذ يمسهم فى خاصة أمرهم ويرميهم بالتقصير والقصور ، فهم يدفعون عن أنفسهم ذلك بأدلة الواقع المحسوس

ولا يدعونا للدفاع عن أنفسنا عاطفة حزبية ، أو رغبة طائفية ، فذلك ما لا نرضاه ولا نميل إليه ، وإنما يدفعنا إلى ذلك الرغبة فى إظهار الحقيقة

والأستاذ الفاضل عودنا فى بحوثه وتآليفه الانصاف ووزن الأحكام بميزان الصدق والحق

ودار العلوم التى رماها بالتقصير والتخلف لم تتوان منذ أنشئت عن أداء مهمتها ، ولم تدخر وسعاً فى تقويم الألسنة وتثقيف العقول فى جميع مراحل التعليم

وأية نظرة إلى منهاج المدرسة تدل دلالة بينة على مقدار صلاحية أبناء الدار فى عملهم ؛ فهم يدرسون اللغة العربية أدبها وقواعدها وفقهها ، كما يدرسون القرآن الكريم ، والفقه وأصوله ، والفلسفة ، والمنطق ، والتاريخ ، والجغرافيا وغيرها يدرسون تلك العلوم بتوسع على أساتذة أكفاء

وأبناء الدار منبثون فى طول البلاد وعرضها ، يعلمون النشء ويقومون أخلاقهم ، ويبثون فى نفوسهم الوطنية الصادقة ويعودونهم البحث ويشوقونهم إلى الاطلاع

والعلوم التى يدرسونها فى مدرستهم يراها الأستاذ فى حديثه الماضى ضرورية لمعلمى اللغة العربية ، وهذه المواد لا تتوافر دراستها إلا فى ذلك المعهد الجليل

ودار العلوم لا تدعى الكمال ، وهى دائبة فى طلب الاصلاح وتعديل منهاجها كلما رأت ضرورة إلى ذلك

يقول الأستاذ إن خريجى دار العلوم لا يفهمون الأدب القديم ولا الحديث ، وهذا حكم لم تصح حيثياته التى تبرره ، ومن السهل على كل إنسان أن يرمى الناس بالضعف أو الجهل ، ويظل حكمه موقوفاً إلى أن تتبين دلالاته

لا يضير مدرسى اللغة العربية قلة التأليف ، فان طبيعة عملهم تثقيف العقول ، وتعويدها البحث والتفكير المستقيم ، وعقد الصلة بين النشء وبين الحياة ، وهم لم يقصروا فى واجبهم ، والنهضة الفكرية كما يشهد الأستاذ لهم فيها أكبر نصيب

وعملنا كعمل غيرنا من أصحاب الفنون ، فكما لا ينقص من قدر الأطباء والمهندسين والقضاة ألا يؤلفوا فى فنونهم التى حذقوها ، فكذلك شأن المعلمين

ونجاح الانسان فى حياته منوط باتقان عمله ، وأداء رسالته

والآن أظهر بعض أسباب الضعف فى اللغة العربية ، مما لم يذكره الأستاذ فى حديثه السابق

اللغة العامية :

معلم اللغة العربية يبذل مجهوداً كبيراً فى تعليمها وتلقينها لأبنائه ، ولو كان يسمع التلميذ من بيئاته لغة عربية ، ويتحدث بلغة عربية لظهر مجهود المدرس وترقت حال التلاميذ ، ولم نشعر بهذا الضعف ، والذى يبنيه الأستاذ فى الفصل يُهْدَم خارجَه فى البيت وفى الشارع ؛ بل إن بعض مدرسى العلوم الأخرى يتحدثون مع تلاميذهم بلغة عامية ، ويقبلون منهم الاجابة بها متى أدت إلى المطلوب ، وينشأ من ذلك ما تراه من استهانة التلاميذ بلغتهم الأصلية ، ولا يتعودون التجويد ولا

العناية متى ما كان دون ذلك يقبل منهم

وما حيلة أساتذة اللغة العربية وحدهم ، وهم يبنون وغيرهم يهدم ؟

فعلة العلل — على ما أرى — طغيان اللغة العامية على الفصحى فى كل مكان ، حتى فى المدرسة نفسها

والعلاج أن نعنى باللغة العربية جميعاً فى محادثاتنا وكتاباتنا حتى نصل بها إلى حالة مرضية ، ونقوى أنفسنا بذلك

وقد لحظت وزارة المعارف وجوب التحدث باللغة العربية ، فحتمت على مدرسيها جميعاً التحدث باللغة العربيـة الفصحى ، ولـكن الواقع غير ما يجب

الطريقة

ومن أسباب الضعف التى عرفتها منذ اشتغلت بالتدريس ، طريقة التدريس بها . فأمام المدرس منهاج مطول من القواعد وأبواب متعددة ، والمنهاج يتطلب منـه الشرح بطريقة خاصة ويطالب من المدرس تقسيم المنهاج على شهور السنة ، وإلقاء كل درس فى ميعاده . وإذا خرج المدرس عن الطريقة المطلوبة إلى طريقة يراها مفيدة للتلاميذ ، فقد يرى رؤساؤه أنه أ[illegible] إذا

والطريقة التى نسير عليها الآن يرى التلاميذ فيها عناية بالقواعد فيتوفرون عليها لعلمهم أنها وسيلة النجاح ، وطريق الحصول على درجات عالية ، ولا يصرفون تلك العناية إلى التطبيق العملى ، وإلى لباب الأدب ، والآثار الفنية التى تكون الذوق ، وتثمر العقل وتزيد الثروة ، فتجود لغتهم ، ويقوى تعبيرهم عما فى نفوسهم . والعناية بالقواعد تخرج التلاميذ عن الغاية الساميـة من العلم ، إلى اعتباره وسيلة للنجاح ، ولذا يهملون بانتهائه وينسون باجتيازه

والذى أراه أن تغير الطريقة الحالية فى جميع سنى الدراسة إلى طريقة عملية تطبيقية ، وذلك إما بعرض نماذج أدبية مختلفة ، وإلقاء أسئلة منوعة فى الدرس تحوى أجوبتها الصحيحة القواعد المطلوبة ، وإما بوصف محسوس أو شرح حادثة ، ثم يوجه نظر التلاميذ إلى القاعدة ، بعد أمثلة كثيرة ، فالقاعدة تدرس كشىء ثانوى لا أولى

وهـذه الطريقة نافعة قد جربتها فثبتت لى فائدتها ، وكل عبئها يقع على المدرس فى تحضيرها وإعدادها إعداداً صالحاً ، وهى تقرب من الطريقة الطبيعية

القواميس العربية

ومن أسباب الضعف فى اللغة العربية فقرها من القواميس الحديثة المصورة التى تحدد المعنى فى الذهن تحديداً بيناً

وأمامنا الآن قواميس قديمة نأخذ منها معانى المفردات مع تقدم الزمن ، واختلاف العصور

ويشاهد الباحث حاجة ملحة إلى مظان البحث فلا يجد ، على حين نشاهد فى اللغات الأخرى ثروة عظيمة لمن يريد البحث والاطلاع . فعلى من تقع مسئولية ذلك ؟ أعلى مدرس اللغة العربية أم على العلماء ؟ أم على الجامعة ؟

الحق أننا شاعرون بالنقص ، ولـكن لا حيلة لنا فى الـكمال إلا بقدر

عويس القرنى

موت صديق

(بقية المنشور على صفحة ١١٣٩)

حول المقبرة التى يستريح جثمانه فيها . فالأشجار مورقة متشابكة الأغصان ، تشدو العصافير تحت ظلالها ، وللذباب الربى أغاريد على أزهارها . كل شىء يتنفس فرحاً وحياة فى مساكن الموتى ، وفى المساء ، حين يلمع القمر فى السماء ، وأنا أتأمل فى هذا المثوى الـكئيب أسمع الصرصور يوالى بطرب إنشاد « أغنيتـه » التى لا يسأم ترديدها ، متوارياً بين الأعشاب التى تحجب اللحد الذى يثوى فيه صاحبى . إن فساد الـكائنات هذا الفساد الذى لا يُحس به ، وكل نكبات الانسانية ومصائبها لا يعد شيئاً فى الوجود الـكلى . إن موت إنسان يحس به ، يحتضر بين أصحابه اليائسين ، وموت فراشة أهلـكها نسيم الصبح البارد فى فجوة زهرة ، هما حادثان متماثلان عند الطبيعة . فما الانسان إلا خيال أو ظل أو ضباب يذوب فى الفضاء .

خليل هنداوى

هل التقليد هو النظرية السائدة في التعليم والتشريع بمصر الحديثة ؟

للدكتور محمد البهى قرقر

فى مصر يلاحظ الانسان العادى إذا ما تتبع الصحف اليومية فحسب تغييراً متتالياً فى برامج التعليم وتعديلا من وقت لآخر فى قوانين البلاد المدنية

تؤلف وزارة المعارف لجاناً لتهذيب مناهج التعليم ، يكاد يكون ذلك فى آخر وفى أول كل سنة دراسية ، وتكلف وزارة الحقانية فى فترات قصيرة متتالية بعض رجالها المسئولين على شكل هيئات استشارية صغيرة — تغيير بعض مواد القانون الجنائى أو المدنى مثلا . كل ذلك تتسابق الصحف فى الاعلان عنه ، وهو أيضاً حقيقة واقعة تتكرر كلما حدث تغيير أو بعض التغيير فى هيئة الحكومة المركزية

قد يمر الانسان العادى بمثل هذه الأخبار دون أن يقف بها وقفة تفكير ، بل ربما يعدها مثلا من النشاط الحكومى . ولكن الباحث الاجتماعى الذى يربط الحوادث بأسبابها ، أو الباحث النفسى الذى يفتش للظواهر النفسية عن مصادرها ، لايدع هذه الظاهرة ، ظاهرة التعديل المتكرر ، تمر إلاويستخلص منها نتائجها . ولكن لا فى صورة نهائيـة يقينية — فذلك ما لا يعمد إليه الباحث المتروى — وإنما يضعها فى صيغة استفهامية مُرَدَّدة . وأول ما يخطر بفكره : هل لهذا التغيير والتحوير من سبب ؟ هل ذلك السبب أساسى ؟ أى له علاقة بالأساس الذى بنى عليه التعليم وارتبط به التشريع ، أم هو عرضى إضافى ؟

وأساس التعليم والتقنين يختلف طبعاً باختلاف أحوال كل أمة ، ويتكيف بالظواهر الاجتماعية والأوضاع الجغرافية لكل شعب : فالجنس والدين واللغة والعادات من المقومات الأولية فى تكييف التعليم والتشريع . فالجنس — وأقصد به الجنس التاريخى الذى يتكون بمرور الزمن وتنشأ عنه وحدة جنسية — له صفات وغرائز نفسية ربما تباين كل التباين صفات وغرائز جنس آخر ، فالجنس الشمالى مثلا عرف بالبطء فى الفهم والتروى فى التفكير ، بينما الجنس الجنوبى — وخاصة سكان البحر الأبيض المتوسط — حاد الذكاء كثير الأخطاء فى استنتاجاته العقلية . والدين له دخل كبير إلى حد ما فى تكوين العادات الخلقية ، الفردية والاجتماعية منها ، فى كل شعب ، بل فى وسط شعب واحد ، فقد يرى الانسان فى الشعب مظاهر خلقية متباينة ترجع فى اختلافها إلى اختلاف معتقدات الشعب نفسها . وكل لغة — بسبب تميزها بوسائل التعبير التى تنم عن طرق فى التفكير لكل أمة خاصة — تعتبر عاملاً مهماً فى تلوين التعليم والتشريع لا يقل عن عوامل العادات والوضع الجغرافى والحالة الاقتصادية للأمة

فالتعليم الطبيعى إذن يسير على وفق غرائز الشعب وصفاته النفسية ، لا بد أن يلاحظ فيه دين الدولة ولغتها وعاداتها . وسواء اعتبرت هذه كلها أو بعضها فى نظر أمة أخرى أو أفراد منها — بناء على صورة نفسية مخصوصة ملقنة مثلا — ساذجة فطرية أو راقية ، فالمبدأ الأساسى هو ربط التعليم بها ربطاً وثيقاً ؛ وهذا الربط عينه هو ما يسمى عند علماء النفس والتربية بنظرية التعليم الوطنى

كذلك التشريع . فالجنائى والمدنى منه يرتكزان على نفسية الشعب التى تتمثل فى أفراده وعلى أخلاق الشعب وعوائده التى للدين فيها أثر كبير . فالمشترع الحديث لا يفرض عقوبة على جرم مثلاً إلا إذا وثق أن من وراء ذلك الردع والتهذيب ، والردع والتهذيب كلاهما مرتبط بمعرفة نفسية المجرم وبظروف الأجرام ، والمرآة الوحيدة التى تنعكس عليها نفسية المجرم وتتشخص فيها هى تحليل نفسية الشعب الموروثة والمكتسبة ، والمقياس الذى يوضح ظروف الجريمة هى عادات الشعب وقانونه الخلقى ، وليست المبالغة فى العقوبة وحدها كافية فى الردع والتهذيب كما يظن بعض المشترعين . وتشريع العائلة أساسه أيضاً دائماً عادات العائلة نفسها والعرف الشعبى الذى يحيط بها ومعتقدها الدينى الثابت فيها ومنهجها الخلقى الذى تسير عليه . فاذا كان التشريع على هذه الأسس كان أيضاً تشريعاً وطنياً ، والتعليم والتشريع

إذا كانا وطنيين كانت الغاية منهما محققة وثابتة وهى رفع المستوى التهذيبى للشعب من ناحيتين يلتقيان عند نقطة واحدة ؛ إلا أن إحداها وهى ناحية التعليم ، ذات أثر داخلى ، والأخرى وهى ناحية التشريع ، أثرها من الخارج

وكل حركة سياسية وطنية ترمى دائماً — إذا كانت سائرة فى طريقها الصحيح — أولاً وقبل كل شىء إلى جعل التعليم والتشريع وطنيين ، ولكن لا يعنى صبغهما بالصبغة الحزبية وإلا كانت الغاية منهما خدمة شخصية بحتة

على ضوء هـذا التعريف الوجيز يمكن للانسان أن يتبين أسباب التعديل والتغيير فى مناهج التعليم وفى حركة التشريع بمصر الحديثة

قسمت مدارس الحكومة إلى درجات معينة : إلزامى وابتدائى وثانوى وجامعى . ووضع لكل نوع من هـذه المدارس منهاج خاص ، وربما — بل هو الواقع — لا يكون الخطوة الضرورية للنوع الذى يليه من التعليم . ثم لوحظ أنه لا بد أن يكون فى المنهاج الخاص لكل نوع وحدة عامة قد تتنافى مع الحالة الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية التى تكتنف كل مدرسة والتى تؤثر إلى حد ما فى محيط تعليمها

ففى التعليم الالزامى مثلاً يوجد برنامج واحد شامل لمواد التعليم لكل مدارس القطر الالزامية ، بينما المناطق الجغرافية المختلفة وأحوال البلاد الاجتماعية المتباينة لم تنل أية عناية فيه . وهنا يمكن للباحث الاجتماعى أن يدعى أن هـذا المنهاج ليس وطنياً ؛ إن هو إلا منهاج عبر على سفينة التقليد من حيز إلى آخر ، من شعب إلى غيره ، ولكنه لا يقطع بأجنبيته إلا إذا تحقق من نتائجه ، ونتائج التعليم مهما اختلف فى أسلوبه يجب أن تكون التهذيب ، وبلا ريب لم يكن التهذيب فى يوم من أيام حياة التعليم الالزامى نتيجة له ، وإن كان مقصداً له مرسوماً ، بل كانت نتائجه ، وستكون كلما طال أجله على هذا النحو ، إيجاد مشاكل اجتماعية تزداد تعقيداً على ممر الأيام . وليس أصرح فى بيان هذه النتيجة من كلمة النائب المحترم الأستاذ عزيز أباظه عند مناقشة ميزانية وزارة المعارف فى مسألة التعليم الالزامى . فهو يقول : « إن الوسيلة المتبعة فى التعليم الالزامى بمصر قد تكون متفقة مع الأحوال الفنية — وطبعاً هو يعنى أنها قد تكون طبق النظريات المقلدة — ولكنه يعتقد أن هذا التعليم فى وضعه الحاضر لا يفيد البلاد شيئاً » لأنه لم يقم على أسس البلاد الوطنية

كذلك إذا جاوزنا التعليم الابتدائى والثانوى ، وناقشنا التعليم الجامعى ، وخاصة مايدّعى منه زعامة التعليم الأدبى والثقافة العربية ، رأينا مايسمى « بالتجديد » الذى صار نغمة تسمع فى كل جدل ومناقشة ، ليس مايجرى فيه من التعديل إلا تعديلاً وتغييراً لا يعدو أن يكون سببه التقليد أيضاً أو هو التقليد نفسه . فمثلاً إنشاء سنة توجيهية ، كمقدمة لدراسة الأدب العربى ، يدرس فيها آداب اللغتين اليونانية واللاتينية ، مع شدة ما بينهما من ناحيـة وبين الأدب العربى من ناحية أخرى من تباعد وانفكاك ، محض تقليد للجامعات الأوربية ، فهذه تحتم دراسة اللغة اللاتينية ، لأنها مرجع النقل (Tradition) فى العلم الغربى وأصل لمصطلحاته الفنية لليوم . كذلك تحتم هذه الجامعات على طالب التخصص فى الفلسفة الأغريقية دراسة اللغة اليونانية القديمة للعلة نفسها بخصوص هذا الموضوع من الفلسفة عامة ، ولكن أمصطلحات فن دراسة الأدب العربى مشتقة كذلك من اللغة اللاتينية أو اليونانية مثلا ؟ أم ذلك هو التقليد « والتجديد » ؟

كذلك يجد الباحث الاجتماعى نظرية التقليد هى أساس محور التعديل والتغيير فى التشريع المصرى . فعند قراءتى : « يوميات نائب فى الأرياف » للأستاذ توفيق الحكيم فى مجلة « الرواية » استوقف نظرى حكاية حادثة قضائية هى نفسها تعد من الحوادث اليومية العادية ، ولكنها تعطى للباحث صـورة واضحة عن هذا التقليد : « سيقت امرأة ريفية إلى الوقوف أمام محكمة جزئية للحكم عليها ، لأن جريمتها أنها غسلت ملابس فى ترعة عمومية ، فلم يجد القاضى بداً من تغريمها ، لأنه أمام نص قانونى » . هذا النص القانونى اقتبس من النص الفرنسى الذى هو نتيجة لازمة لمخالفة نظام قائم فى فرنسا . هذا النظام القائم هو أن البلديات هناك شيدت أولا أحواضاً عامة للفقراء

للغسل والاستحمام تسهيلا لهم من جهة ، ومنعاً لانتشار الجراثيم فى مياه عمومية من جهة أخرى ، ثم شرعت بعد ذلك هذا النص وهو تشريع طبيعى . فتعديل القانون المصرى وإدخال هذا النص الفرنسى فيه دون أن يكون بريف مصر منشئات مثل هذه ، تعديل لم يراع فيه إلا التقليد من ناحيته السلبية ، ولم يلاحظ بأية حال أسلوب المعيشة فى قرى مصر وحالتها الاجتماعية وعوائد أهلها

وليست أمثال هذه الحوادث القضائية هى التى تظهر فقط أن أساس تعديل القوانين فى مصر هو التقليد ، بل مازال بعض كبار رجال القانون المصرى المسئولين يباهى ويفتخر بأن التشريع المصرى الحديث أصبح يضاهى أحدث القوانين لدى الأمم الراقية . ولكن الأمم الراقية نفسها إذا افتخرت بقوانينها فانما تفتخر بها لأنها وفق حضارتها وثقافتها ، وفق حالة شعوبها الاجتماعية والاقتصادية ؛ وبالعكس تسخر من الشعوب الأخرى التى تحاول تقليدها فى تشريعها لذات التقليد وحب الانتساب إلى الرق والمدنية فى شكلهما الظاهرى . فكثير من الشعوب الغربية يعيب تركيا الحديثة فى اقتباسها القانون السويسرى مثلاً فى أحوال العائلة ، والقانون الفرنسى فى المسائل المدنية والتجارية — مع أن العائلة التركية لا تجتمع مع العائلة السويسرية إلا فى النسبة البشرية ؛ أما التربية ، أما الغرائز النفسية ، أما العادات المتناقلة فشتان ما بينها من اختلاف — . التقنين عند تلك الأمم الراقية ليس عملية هينة يقوم بها القانون وحده ، وإنما ساعده الأيمن فى ذلك العالم النفسى الذى يبحث فى تكييف صفات الشعب النفسية ، والعالم الاجتماعى الذى يربط ظواهر الأمة الاجتماعية بأسبابها ويقارن بينها وبين ظواهر أمة أخرى ، والعالم الاقتصادى الذى يبحث أسباب ضعف أو ارتفاع ميزان الأمة التجارى وحالة معيشتها

فالتعليم والتشريع إذن فى مصر الحديثة كما يراه أى باحث اجتماعى نفسى أساسه التقليد أو على الأقل هو الجزء الأعظم المكون لهذا الأساس ، أما العوامل الوطنية المحلية فنصيبها فى ذلك ضئيل . وما يسمى بالحركة الوطنية لا يتجاوز الآن أن يكون حركة صورية فحسب لم تنفذ بعد إلى الالباب بل ربما يقال عنها أيضاً إنها تقليدية

تعليم وطنى ، تشريع وطنى وحركة وطنية فى مصر — لم تزل كلها بعد ألفاظا معانيها غير محدودة ، وخيالات لم تقابلها إلى الآن حقائق راهنة . نعم هناك المواد الأولية لبناء حركة تعليمية تشريعية وطنية ، هناك عادات للأمة ، هناك مقياس خاق — وليكن فيهما بعض نواحى النقص أو الضعف أو الانحطاط فمعالجة ذلك موكولة إلى المصلح الاجتماعى — ثم هناك دين ولغة تتمثل فيهما ثقافة الأمة الموروثة كما تتمثل فى أبى الهول وأهرام مصر مدنيتها القديمة ؛ هناك أيضاً البناء الذى ينقصه فقط الاتمام والتوسيع ، هنالك الأزهر الذى يرجع بنظره الآن إلى ألف عام مضت — وهو لم يتقوض بعد ولن يتقوض — كمصدر لهذه الثقافة الوطنية ، كمصدر لهذا التشريع الوطنى . ذلك هو فخر مصر ، فجامعة اكسفورد اللاهوتية ، جامعة اكسفورد التى هى معقل الثقافة الانكليزية القديمة الموروثة جيلاً عن جيل ، معقل لتقاليد Trdition لم تزل وستبقى فخر الشعب الانكليزى ما دام اعتزازه بالمحافظة على التقاليد

حركة وطنية ما هى إلا حركة رجعية ، وليست تقليدية ، حركة تنظر إلى تراث الماضى لتبنى عليه مجد المستقبل لا لتقوضه وتستبدل به غيره ؛ فالتبديل معناه إنشاء خلق جديد على رغم الطبيعة وسنة الكون ، وتلك محاولة شاذة لم تخطر وان تخطر ببال مصلح اجتماعى عاقل ، لأنها محاولة عبث وخيال لن يتحقق . تقليد وحركة وطنية شيئان لا يجتمعان فى نظر عالم اجتماعى نفسى ، لا يجتمعان فى نظر زعيم وطنى ، وإن كانا قد يجتمعان فى نظر روائى خيالى لم يلمس الحقائق بعد ؛ قد يجتمعان فى نظر من شغف « بالتجديد » والانتساب إلى البحث لا لأنه يحب الجديد ويميل إلى البحث ، بل لأنه قد لا يدرى ما هو التجديد وما هو البحث .

فى المقال التالى سأعالج العلل النفسية لهذا التقليد

محمد البهى قرقر
دكتور فى الفلسفة وعلم النفس
من جامعات ألمانيا

على هامش رحلتي الى الحجاز

في تكية الدراويش*

للدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ الشرقي بجامعة بودابست

خاتمة

وتقع في جانب الجبل مغارة عميقة هائلة ليست كلها من عمل الطبيعة ، بل إنهم اجتهدوا في توسيعها شيئاً فشيئاً ، فهذه المغارة هي في الواقع مقبرة الدراويش يتوسطها مقام الشيخ الكبير أبو عبد الله المغاوري الذي يرجع الفضل إليه في تأسيس تكية القاهرة ، يحف به مئات من قبور الاخوان الدراويش ، وهي متناثرة هنا وهناك في جوف المغارة . وأسر إلى صديق بأن هؤلاء الاخوان إنما تحرروا من قيودهم الزمنية وانطلقوا إلى العالم الآخر ليظفروا بلمحات يكشف لهم فيها الغيب ، ويروا مالا تراه العيون . بيد أنني لم أفكر كما فكرت الساعة في أن الرجال في أية لحظة من لحظات حياتهم هم أموات بالنسبة لتلك اللحظة ، فليس الوقت هو الذي يمضي سراعاً ، ولكننا نحن الذين نبتعد عن الزمن الصامت الثابت

وإذا ما أراد الزائر أن يهبط إلى جوف المغارة فعليه أن يخلع نعليه أولا ويودعهما في صندوق خشبي مستطيل الحجم بجوار الباب ، كما يتحتم عليه أن يدفع بعض ما تيسر في صندوق النذور . ولقد رأيت أن المترددين لزيارة هذه القبور نفر يسير من سكان القاهرة الفقراء ، وأخصهم النساء اللواتي يلتمسن شيئاً من العزاء والسلوى في وقوفهن أمام الأضرحة والقبور

خلعت وزميلي نعلينا وتأهبنا للتوغل في داخل المغارة التي كانت شمس الصباح تنفذ من فوهتها . وبعد أن دفعنا بضعة قروش لحارس المقبرة وهو من الدراويش الأشداء ، دلفنا إلى مقصورة الشيخ الكبير مؤسس الطريقة ؛ وكان ن خارج المقبرة عدد من العجائز يرفعن أيديهن إلى السماء ويبتهلن إلى الله بالدعوات الصالحات ، وقد علمت أن في وسع الموسرات منهن أن يدخلن إلى المقصورة ويمسسن الضريح بأيديهن للتبرك — ولكن هذا نادر — أما بقيتهن من الفقراء اللواتي لا يملكن قوت يومهن ، وهن يكتفين بالوقوف بباب المقصورة وأمامهن أحد الدراويش حاملا في يده مقرعة ليفسح الطريق للزائرين

إن زيارة الأضرحة في مصر لا تزال من العادات المتفشية بين جميع الطبقات ؛ وعلى الرغم من محاربة العلماء لها ، فليس من السهل القضاء على الخرافات الكثيرة المتأصلة في نفوس العوام ، لأنهم يعتقدون أن بعض الأولياء تحل بركتهم بالمرضى فيبرأون . ولقد قضى الوهابيون على هذه البدع والنقائص كلها فحرموا زيارة الأضرحة والتبرك بالأولياء ، واستطاعوا أن يعيدوا إلى بلادهم الشرائع الاسلامية خالية من كل شائبة . وهم يقولون إن قوة الانسان في حد ذاتها محدودة ، وليس في وسع أي مخلوق أن يشارك الله في قدرته ؛ ويعتقدون أن وجود هذه الأضرحة يعيد إلى الذاكرة عبادة الأوثان التي قضى عليها الاسلام وحاربها بكل قوة

ووقع نظرنا على ضريح الشيخ المغاوري يتوسط المقصورة في مساحة لا تقل عن تسع ياردات ، وفي طرف الضريح رأس من الحجر ملفوف عليه قماش أخضر مطرز . وكذلك رأينا شمعتين كبيرتي الحجم موضوعتين بجوار الشاهد ، حتى خيل إلينا أنهما حارسان . ولا يجب أن يفهم من هذا أن هاتين الشمعتين موضوعتان لغرض الاضاءة ، كلا بل هما للزينة والتأنق ، لأننا شاهدنا مصباحاً متدلياً من السقف ينشر ضوءه الشاحب الخفيف على وجوه الزائرين

جلست مع صديقي حسونه على المقعد الحجري المصاقب لضريح الشيخ ، نرقب عن كثب هذا المشهد المؤلم ، مشهد عشرات النسوة وهن يتمرغن في الخارج على الحجارة ويرسلن أصواتاً خفيفة مزعجة كالنباح ، وأومأت إلى صديقي أنه يستطيع أن يستخلص موضوع رواية يوضح فيها بجلاء حالة المرأة

* عن كتاب نشره بالمجرية بعنوان « الله أكبر »

المصرية ، ثم يعرج على وصف حالة العامل المصرى والفلاح المصرى ويحلل نفسية كل منهما . فالفلاح فى مصر لا يزال يكد ويشقى ، ويلاقى من صنوف الهوان ومرارة العيش ، كما كان يعانيه زميله أيام بناء الأهرام دون تغيير أو تبديل فى أسلوب الحياة ، وما برحت الخرافات والبدع الدينية ظاهرة الأثر رغم تقدم الحضارة وانتشار العمران ، وما زالت مسيطرة على نفوس هؤلاء العوام

أجل ! إنه لولا وجودى فى القاهرة لما فكر صديقى حسونه فى أن يقصد إلى تلك الخرائب والأضرحة ، ولكنى أغريته بزيارتها حتى يتمكن من أن يجمع المواد التى يتألف منها كتاب أو رواية تفهم معتقدات العوام وحالتهم الفطرية

ولا أبالغ إذا قلت إن هذه المغارة وهـذا الضريح الذى يتوسطها وتلك الأضواء الخافتة المستحيية ، وهذا الشيخ الذى تفد النساء لزيارته خاشعات مسترسلات فى توسلاتهن الحارة . كل هذه مشاهد كان لها تأثير خاص على مشاعرى . أما حارس الضريح الذى لا يأذن لأحد بالدخول إلا إذا ناوله الجعل المخصص للزيارة فانه قادنا إلى أقصى المغارة حيث ألفينا نحو ثمانى نساء يطفن بالضريح ويلمسن الكسوة بأيديهن تبركا . ولقـد حدث أن شاهدت واحدة منهن وهى واقفة كالصنم ، شاخصة ببصرها نحو المصباح الذى يرسل ضوءاً خافتاً لونه أحمر ، شاهدتها جامدة كالتمثال أكثر من دقائق معدودة ، لا تبدى حراكا ولا يهتز لها جفن ، وراعنى أن ألفيت برقعها الأسود ملقى وراء ظهرها ، وكان وجهها شاحباً شحوب الموتى ، ولكن صديقى علل ذلك بأن الشمس قلما تسطع على هذه الوجوه ، لأنهن يمشن محجبات فى داخل دورهن وإذا ما خرجن أحكمن وضع البراقع السميكة التى تحجب عن وجوههن ضوء الشمس فيكتسب الجلد لون الصفرة . وكانت هناك عجوز شمطاء تلقى بجسمها على جدار الضريح كأنمـا الشخص المدفون أحد أحفادها ، وثالثة نحيلة طويلة ، ترتدى السواد وتلطم صدرها بكلتا يديها ، ثم لا تلبث أن ترفعهما إلى السماء وتتوسل بصوت مرتفع . ورأيت الدموع تنحدر من عينيها وقد ارتسمت على وجهها آيات الرعب والفزع ، ثم سمعنا بعد ذلك صوتاً يخرج من صدرها ، وبعد برهة أخذت تولول وتمزق ثيابها . وكانت هـذه الصرخة نذيراً لبقية النسوة اللواتى حافظن حتى هـذه اللحظة على الصمت ، فانهن أسرعن إلى تقليد حركاتها والارتماء ثم التمرغ على الثرى والتدحرج حتى يصلن إلى المحراب ، وهناك تخور قواهن . أما صديقى فقد راعه هـذا المشهد المؤلم الذى يصور حالة خاصة من حالات الأمراض النفسية ، فأمسك بذراعى وطلب إلىّ أن نغادر المكان سريعاً ، بيد أنه نسى أن هذه المناظر الهسترية هزتنى هزة عنيفة بحيث كدت أرتمى بدورى على الأرض ، لولا أننى قاومت هذه الرغبة وأقصيتها عن ذهنى . ما هذا البكاء ، وذلك العويل ، وشق الثياب ؟ لقد تمالكت رشدى ورحت أحدق فى وجوههن لأحاول أن أستخلص منها قصة كل واحدة ، وإليك نتيجة استنتاجى :

***

تربى الفتاة المسلمة على الطاعة والخضوع والانقياد ، لا على الحرية والصراحة فى الرأى والتفكير ، فالطاعة والانقياد هما الدعامة الأولى للتربية فى مصر ، وهذا هو السبيل للحياة المقبلة . فللوالد الحق فى أن يجبر ابنتـه على الزواج من الشخص الذى يختاره لها ويفرضه سيداً عليها : وليس عليها سوى الامتثال لمشيئته ، كما أن للزوج سلطة ضربها إذا عصيت له أمراً . وإذا أرادت المرأة أن تثأر لنفسها فليس أمامها سوى طريق واحد ، هو طريق المؤامرات السرية والدسائس . والعادة أن جميع الأزواج لا ينظرون إلى زوجاتهن إلا نظرة الازدراء والتحقير ، بل إن البعض منهن يعتبرن من سقط المتاع . وهذا هو السبب الذى يدعو الكثيرات منهن إلى أن يقصدن إلى تلك الأضرحة ليتوسلن إلى أصحابها ويستنجدن بكراماتهم من هول تلك الفظائع ولا يخفى ما للعواطف المكبوتة من الأثر السىء فى النفوس ، وهؤلاء اللائى يدفن رغباتهن فى صدورهن إنما يتعرضن لأفظع الآلام الهسترية ، فيعمدن إلى إقامة حفلات الزار والتوسل بزيارة الأضرحة للبرء مما يصيبهن من الأمراض العصبية

إننى لا أزال وأنا أكتب هذه السطور أتذكر صورة هذا

الرجل الذى دخل علينا ونحن بضريح الشيخ المغاورى ثم اتخذ موقفه بين الشمعتين وما كاد يرى صياح النسوة حتى راح يهز رأسه هزاً عنيفاً بطريقة منتظمة ، ثم ينادى بأعلى صوته : الله ، الله ... وبعد برهة كان يلتوى على الأرض التواء الحية الرقطاء وتتقلص عضلات وجهه ، ويرسل صراخا كالنباح ثم يهتف قائلاً : الله أكبر ! الله أكبر ! حتى خيل إلينا أن صخور المقبرة أوشكت أن تلتقط منه لفظ الجلالة . وكدت أفقد رشدى من هول الموقف ، وأحسست كأن حشرجة الموت تنشب مخالبها فى حلق ، فأردت أن أستنجد بكل قواى غير أنى لم أستطع إلى ذلك سبيلا ، فجاهدت قدر طاقتى حتى لا أسقط عن مقعدى ، ولكن بلا جدوى أيضاً لأننى شعرت كأن بى مسا من الجن ، وأن كابوساً قد جثم فوق صدرى ، وأن العرق البارد يتحلب من وجهى . وأخيراً هدأت نفسى فغادرت المكان وهتفت بصديقى أدعوه إلى الصلاة . ولكنه أجابنى بعدم قدرته على أدائها وهو لا يزال يرجف فزعا . فتركته ومضيت إلى القبلة ، حيث عادت إلى طمأنينتى الأولى . وبعد الصلاة رحت أفتش عن صديقى فاذا به يقف بجوار المحراب باهت اللون ، ينتظرنى بفروغ صبر لنغادر هذا المكان الذى كان يرمقه بعيون مفتحة رعباً

وتأوه صديقى ونحن نغادر باب المغارة ، ثم أفضى إلىّ بأنه من الصعب أن يشعر بأقل ميل نحو الشرق ، حيث الأضرحة والعقائد القديمة البالية والعادات المرذولة ، ولكن أمه — تلك السيدة الوقور الطيبة الأخلاق — طالما شكت إلىّ إيمانه المزعزع واتجاهه نحو الغرب ، وكانت تصلى من أجله عسى الله أن يرشده إلى الطريق السوى ويغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

وانطلقنا إلى حديقة المغارة وما كدنا نستقبل الهواء الطلق حتى وقع نظرنا على طائفة من السائحات الأمريكيات وهن يصغين باهتمام إلى شروح بعض التراجمة والأدلاء ، فهتفت بصديقى قائلا :

— هذا هو الغرب الذى تتعشقه

(تمت) عبد الكريم جرمانوس

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٢ —

النفس — خلودها — التناسخ

رأيت فيما أسلفنا من مستحدثات عهد التطور تلك النظرية الفلسفية العميقة التى تقرر أن الوجود المادى باطل ، ولكنه مشتمل فى داخله على جوهر سام هو وحدة الحقيقة فى كل موجود ، ورأيت كذلك أن هذه النظرية لم تقتصر على كائن فى الوجود دون كائن ، فهى قد تناولت الآلهة والأناس والحيوان والنبات ، غير أن أهم ما يعنى الباحث فى هذا الجوهر الحق المختبئ وراء الأستار المادية إنما هو النفس

وقد عنى خاصة الهنود بها عناية شديدة منذ أقدم عهودهم بالتفكير ، فقرروا أنها هى الجوهر الحق فى الانسان ؛ ولذلك أطلقوا عليها اسم الانسان لأنهم اعتبروا الجسم بدونها باطلاً لا يستحق أن يدل على الانسان كما تدل عليه النفس . ولا شك أن الباحث حين يتأمل فى هذه النظرية للوهلة الأولى يلمح فيها عناصر نظرية « أفلاطون » فى النفس والمادة حيث يقرر أن النفس هى وحدها النور الخالد والحق الأسمى فى الانسان ، أما الجسمان المادى فانه خيال باطل لا تطلق عليه كلمة « حقيقة » إلا تجوزاً ، لحلول النفس فيه ولصوغه على نماذج المثل التى أبنا أن عناصرها مصرية

ويرى فلاسفة الهند أن النفس جاهلة بالفعل عالمة بالقوة ، وأن الجهل والعلم صفتان متعاقبتان عليها باختلاف الظروف والأحوال . ولا جرم أن الهنود قد سبقوا « أرسطو » بعدة قرون الى نظرية جهل النفس بالفعل وعلمها بالقوة وفوزها بالعلم الفعلى عن طريق الكسب والتجربة ، تلك النظرية التى بسطها أرسطو بسطاً واضحاً حين رد على أفلاطون القائل بأن النفس كانت عالمة بالفعل قبل أن تحل فى الأجسام المادية ثم نسيت

تلك المعارف بعد حلولها فى المادة الكثيفة ، وهى الآن لا تتعلم شيئاً جديداً ، وإنما تتذكر ما كانت قد تعلمته فى الماضى ثم نسيته

والنفس عند الهنود خالدة لا يعتورها الفناء ، لأنها هى كل ما فى الانسان من حقيقة كما أسلفنا ، ولهذا فهم لا يعتبرون الموت أكثر من تغيير ثياب النفس ومآويها ، إذ أنها هى لا تتعرض بالموت لأى شىء إلا انتقالها من مأوى الى مأوى بما يسمونه التناسخ أو التقمص . وقد أفاضت الكتب الهندية دينية وفلسفية فى هذه العقيدة أو النظرية إفاضة جعلتها كأنها وحى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهاك شيئاً مما نقله لنا البيرونى خاصاً بعقيدة خلود النفس وتقمصها :

قال « باسديو » لـ « أرجن » يحرضه على القتال وهما بين الصفين : « إن كنت بالقضاء السابق مؤمناً فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن معاً بموتى ولا ذاهبين ذهاباً لا رجوع معه ، فان الأرواح غير مائتة ولا متغيرة ، وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الانسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة التى عقباها موت البدن ثم العود . وقال له : كيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود لا عن ولادة ولا إلى تلف وعدم ، بل هى ثابتة قائمة لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها ، ولا ماء يغصها ، ولا ريح تيبسها ، لكنها تنتقل عن بدنها إذا عتق نحو آخر ليس كذلك كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق . فما غمك لنفس لا تبيد ، ولو كانت بائدة فأحرى ألا تغتم لمفقود لا يوجد ولا يعود . فان كنت تلمح البدن دونها وتجزع لفساده فكل مولود ميت ، وكل ميت عائد ، وليس لك من كلا الأمرين شىء ، إنما هما إلى الله الذى منه جميع الأمور وإليه تصير » . ولما قال له « أرجن » فى خلال كلامه : « كيف حاربت براهم فى كذا وهو متقدم للعالم سابق للبشر ، وأنت الآن فيما بيننا منهم معلوم الميلاد والسن ؟ » . أجابه قال : « أما قدم العهد فقد عمنى وإياك معه ، فكم مرة حيينا حقباً قد عرفت أوقاتها وخفيت عليك ، وكلما رمت المجىء للاصلاح لبست بدناً ، إذ لا وجه للكون مع الناس إلا بالتأنس » . وحكى عن ملك أنسيت اسمه أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته فى موضع لم يدفن فيه ميت قط ، وأنهم طلبوا موضعاً لذلك فأعياهم حتى وجدوا صخرة من ماء البحر نائتة فظنوا أنهم ظفروا بالبغية . فقال لهم باسديو : إن هذا الملك قد أحرق على هذه الصخرة مرات كثيرة فافعلوا ما تريدون فانه إنما قصد إعلامكم وقد قضيت حاجته »

وقال باسديو : فمن يؤمل الخلاص ويجتهد فى رفض الدنيا ثم لا يطاوعه قلبه على المبتغى أنه يثاب على عمله فى مجامع الثابين ، ولا ينال ما أراد من أجل نقصانه ، ولكنه يعود إلى الدنيا فيؤهل لقالب من جنس مخصوص بالزهادة ويوفقه إلى الالهام القدسى فى القالب الآخر بالتدرج إلى ما كان أراده فى القالب الأول ، ويأخذ قلبه فى مطاوعته ولا يزال يتصفى فى القوالب إلى أن ينال الخلاص على توالى التوالد »(١)

وقال فى كتاب « سانك » : أما من استحق الاعتلاء والثواب فانه يصير كأحد الملائكة مخالطاً للمجامع الروحانية غير محجوب عن التصرف فى السموات والكون مع أهلها أو كأحد أجناس الروحانيين الثمانية . وأما من استحق السفول بالأوزار والآثام ، فانه يصير حيواناً أو نباتاً أو يتردد إلى أن يستحق ثواباً فينجو من الشدة أو يعقل ذاته فيخلى مركبه ويتخلص(٢)

قال صاحب كتاب «باتنجل» : إفراد الفكرة فى وحدانية الله يشغل المرء بالشعور بشىء غير ما اشتغل به ، ومن أراد الله أراد الخير لكافة الخلق من غير استثناء واحد بسبب ، ومن اشتغل بنفسه عما سواها لم يصنع لها نفساً مجذوباً ولا مرسلاً . ومن بلغ هذه الغاية غلبت قوته النفسية على قوته البدنية . فمنح الاقتدار على ثمانية أشياء بحصولها يقع الاستغناء ، فمحال أن يستغنى أحد عما يعجزه واحد . تلك الثمانية هى : التمكن من تلطيف البدن حتى يخفى عن الأعين ؛ والثانى التمكن من تخفيفه حتى يستوى عنده وطء الشوك والوحل والتراب ؛ والثالث التمكن من تعظيمه حتى يراه فى صورة هائلة عجيبة ؛ والرابع التمكن من الارادات ؛ والخامس التمكن من علم ما يروم ؛ والسادس التمكن من الترؤس على أية فرقة طلب ؛ والسابع خضوع المرءوسين وطاعتهم ؛ والثامن انطواء المسافات بينه وبين المقاصد الشاسعة(٣)

تقاليد البراهمة

كتب كثير من علماء الفرنجة المحدثين المشتغلين بتاريخ

(١) انظر صفحتى ٢٥ و ٢٦ من كتاب البيرونى
(٢) انظر صفحة ٣٢ من كتاب البيرونى
(٣) انظر صفحة ٣٤ من الكتاب المذكور

الفلسفة حول تقاليد البراهمة وطقوسهم الدينيـة ، فهممت بأن ألخص لك هنا ترجمة ما كتبوه من هذه التقاليد على نحو ما فعلت فى الطقوس المصرية ، ولكنى وجدت ما كتبه أولئك العلماء ليس إلا هيكلا عظمياً إلى جانب ما نقله أبو الريحان البيرونى عن هذه التقاليد ، فلم يسعنى إلا العدول عن الناقص إلى الكامل أو القريب من الكمال . وكنت أحب أن ألخص هـذا النص فى عبارات من عندى لكى لا أكثر من النقل عن الغير ، ولكن ضرورة الاصطلاحات الفنية من جهة وخلو كلام البيرونى من الحشو فى هذه النقطة من جهة أخرى قد ألجآنى إلى الاتيـان بالنص لتحقق الفائدة المرجوة . وهاك ما قاله البيرونى عن هذه التقاليد :

عمر « البرهمن » بعد مضى سبع سنين منه منقسم لأربعة أقسام : فأول القسم الأول هو السنة الثامنة يجتمع إليه البراهمة لتنبيهه وتعريفه الواجبات عليه وتوصيته بالتزامها واعتناقها مادام حياً ثم يشدون وسطه بزنار ويقلدونه زوجا من « جنجوى » وهو خيط مفتول من تسع قوى ، وفرد ثالث معمول من ثوب يأخذه من عاتقه الأيسر إلى جانبه الأيمن ويعطى قضيباً يمسكه وخاتم حشيشة يسمى « دَرْبهى » يتختم به فى البنصر اليمنى ، ويسمى هذا الخاتم : « پـِـِتْر » والغرض فيه التيمن والبركة فى عطاياه من تلك اليد ، والتشديد فيه دون التشديد فى أمر « جنجوى » فان جنجوى مما لا يفارقه ألبتة ، فان وضعه حتى أكل أو قضى حاجته خالياً عنه ، كان بذلك مذنباً لا يمحصه عنه غير الكفارة بصوم أو صدقة . وقد دخل فى القسم الأول إلى السنة الخامسة والعشرين من سنيه ، ووجدت ذلك فى « بشن پران » إلى السنة الثامنة والأربعين . والذى يجب عليه فيها هو أن يتزهد ويجعل الأرض وطاءه ويقبل على تعلم « بيذ » وتفسيره وعلم الكلام والشريعة من أستاذ يخدمه آناء ليله ونهاره ، ويغتسل كل يوم ثلاث مرات ، ويقيم قربان النار فى طرفى النهار ، ويسجد لأستاذه بعد القربان ، ويصوم يوما ويفطر يوماً مع الامتناع عن اللحم أصلاً ، ويكون مقامه فى دار الأستاذ ويخرج منها للسؤال والكدية من خمسة بيوت فقط كل يوم مرة عنـد الظهيرة أو المساء ، فما وجد من صدقة وضعه بين يدى أستاذه ، ليتخير منه ما يريد ثم يأذن له فى الباقى فيتقوت بمـا فضل منه ويحمل إلى النار حطبها من شجرتى : « پلاس » و « دوب »

لعمل القربان ؛ فالنار عندهم معظمة وبالأنوار مقترنة ، وكذلك عند سائر الأمم فقد كانوا يرون تقبل القربان بنزول النار عليه ولم يثنهم عنها عبادة أصنام أو كواكب أو بقر وحمير أو صور

وأما القسم الثانى فهو من السنة الخامسة والعشرين إلى الخمسين ، وفى « بشن پران » بدل هذه الخمسين سبعون ، وفيه يأذن له الأستاذ فى التأهل فيتزوج ويقيم « الكذخداهية » ، ويقصد النسل ، على ألا يطأ امرأته فى الشهر أكثر من مرة عقب تطهر المرأة من الحيض ، ولا يجوز له أن يتزوج بامرأة قد جاوز سنها اثنتى عشرة سنة ، ويكون معاشه إما من تعليم « البراهمة وكشتر » وما يصل إليه منه فعلى وجه الاكرام لا على وجه الأجرة ، وإما من هدية تهدى إليه بسبب ما يعمل لغيره من قرابين النار ، وإما بسؤال من الملوك والكبار من غير إلحاح منه فى الطلب أو كراهة من المعطى فلا يزال يكون فى دور هؤلاء (برهمن) يقيم فيها أمور الدين وأعمال الخير ، ويلقب : « بِرْهِتُ » ، وإما من شىء يجتنيه من الشجر أو يلتقطه من الأرض ، ويجوز أن يضرب بيده فى التجارة بالثياب وبالفوفل ، وإن لم يتولها واتجر له « بيش » كان أفضل ، لأن التجارة فى الأصل محظورة بسبب ما يداخلها من الغش والكذب ، وإنما رخص فيها للضرورة ، إذ لا بد منها ، وليس يلزم البرهمن للملوك ما يلزم غـيره لهم من الضرائب والوظائف . فأما التتابع بالدواب والبقر والأصباغ والانتفاع بالربا فانه محرم عليه ، وصبغ النيل من بين الأصباغ نجس ، وإذا مس جسده وجب عليه الاغتسال ولا يزال يقاس ويقرأ على النار ما هو مرسوم لها

وأما القسم الثالث ، فهو من السنة الخمسين إلى الخامسة والسبعين ، وفى « بشن » بدل الخمسة والسبعين تسعون ، وفى هذا القسم يتزهد ويخرج من الكذخداهية ويسلمها والزوجة إلى أولاده إن لم تصحبه إلى الأصحار ، ويستهر خارج العمران على السيرة التى سارها فى القسم الأول ، ولا يستكن بسقف ولا يلبس إلا ما يوارى سوءته من لحاء الشجر ، ولا ينام إلا على الأرض بغير وطاء ، ولا يتغذى إلا بالثمار وبالنبات وأصوله ، ويطول الشعر ولا يتدهن

وأما القسم الرابع فهو إلى آخر العمر يلبس فيه لباساً أحمر ويأخذ بيده قضيباً ويقبل على الفكرة وتجريد القلب من

الصداقات والمداوات ، ورفض الشهوة والحرص والغضب ، ولا يصاحب أحداً ألبتة ، فان قصد موضعاً ذا فضل طلباً للثواب لم يقم فى طريقه فى قرية أكثر من يوم ، وفى بلد أكثر من خمسة أيام ، وإن دفع أحد إليه شيئاً لم يترك منه للغد بقية ، ولم يكن له غير الدؤوب على شرائط الطريق المؤدى إلى الخلاص والوصول إلى « موكش » الذى لا رجوع فيه إلى الدنيا

وأما ما يلزمه فى جميع عمره بالعموم فهو من أعمال البر وإعطاء الصدقة وأخذها ، فان ما يعطى البراهمة راجع إلى الآباء ودوام القراءة وعمل القرابين والقيام على نار يوقدها ويقرب لها ويخدمها ويحفظها من الانطفاء ليحرق بها بعد موته ، واسمها « هوم » ، والاغتسال كل يوم ثلاث مرات فى سند الطلوع وهو الفجر ، وفى سند الغروب وهو الشفق ، وفى نصف النهار بينهما ، أما بالغداة فمن أجل نوم الليل واسترخاء المنافذ فيه فيكون طهراً من كائن النجاسة واستعداداً للصلاة ، والصلاة هى تسبيح وتمجيد وسجدة برسمهم على الابهامين من الراحتين الملتصقتين نحو الشمس فانها القبلة أينما كانت خلا الجنوب ، فليس يعمل شيء من أعمال الخير نحو هذه الجهة ، ولا يتقدم إليها إلا فى كل شيء رديء . وأما وقت زوال الشمس عن نصف النهار فانه مرشح لاكتساب الأجر ، فيجب أن يكون فيه ظاهراً ، والمساء وقت العشاء والصلاة ، ويجوز أن يفعلهما فيه من غير اغتسال ، فليس أمر الاغتسال الثالث مثل الأول والثانى فى التأكد ، وإنما الاغتسال الواجب عليه بالليل وفى أوقات الكسوفات بسبب إقامة شرائطها وقرابينها . وتغذى البرهمن فى جميع عمره فى اليوم مرتين عند الظهيرة والعتمة ، فاذا أراد الطعام ابتدأ باقرار الصدقة منه لنفر أو نفرين وخاصة للبراهمة المتوحشين الذين يجيئون وقت العصر للسؤال ، فان التغافل عن إطعامهم إثم عظيم ، ثم للبهائم والطير وللنار ويسبح على الباقى ويأكله ، وما فضل منه فيضعه خارج الدار ولا يقرب منه إذ لا يحل له ، وإنما هو لمن سنح واتفق من محتاج إليه ، سواء كان إنساناً أو طائراً أو كلباً أو غيره ، ويجب أن تكون آنية مائه على حدة وإلا كسرت ، وكذلك آلات طعامه . وقد رأيت من البراهمة من جواز مؤاكلة أقاربه فى قصعة واحدة وأنكر ذلك سائرهم(١)

(يتبع) محمد غلاب

(١) انظر صفحات ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ من كتاب البيرونى

من صور الشارع :

العـــدالة

للأستاذ أمجد الطرابلسى

اللّيلُ داجٍ وأعاصيرُهُ ... مجنونةٌ تضحكُ منه الرّعودْ
والبرقُ فى آفاقهِ لاهبٌ ... كشُعْلةِ الغيظِ بصدْرِ الحسودْ
والمطرُ الدّفّاقُ فى لحنهِ ... مسترسلٌ يُبدئُهُ أو يُعيد
يصافحُ النهرَ فتعلو لهُ ... نغمةُ نايٍ وأرانينُ عود
والشارعُ الجَهْمُ مصابيحُهُ ... كأعينِ الذؤبانِ فوق النجود
قفرٌ منَ الناسِ ، فلا سيّدٌ ... يخطرُ مختالاً ولا من مَسود
إلا عرابيدُ هُنا أو هنا ... كأنما أرجُلُهم فى القيود
يبغونَ مَنجى من مُلِثِّ الحيا ... لولا خُمارٌ مُستَبِدٌّ عنيد
ونام . . . إلا مرقصاً فاجراً ... يقظانَ لا يعرفُ معنى الهجود
نهارُهُ الليلُ ، وسُمّارُهُ ... كُثْرٌ إذا أغنى الغنيُّ البليد
تمزّقُ الدجيةَ أنوارُهُ ... كأنها أنوار عُرسٍ وعيد
وتطربُ الشارعَ أنغامُهُ ... رنّانةٌ صَخّابةٌ من بعيد
دخلته . . . يا حسنَه منظراً ! ... راحٌ وروْحٌ ولحونٌ وغيد
من كلِّ خَوْدٍ خلقَتْ فتنةً ... لحظا وقدًّا ونهوداً وجيد
وأهوجٍ فى عنفوانِ الصِّبا ... صريعِ كأسٍ أو مُنى خدود
والناسُ فى رقصٍ وفى نَشوةٍ ... حولَ دُمى الحسنِ قيامٌ قُعود
ما منهمُ إلا فتى عابثٌ ... ما فيهمُ إلا الضَّحوكُ السّعيد
كأنّهمْ فى فَرَحٍ دائمٍ ... مُذ نزلوا الأرضَ وعيشٍ رغيد

***

يا شاكياً أوصابَ هٰذى الدُّنا ... لا زلتَ إلفاً للضنى والجود
أتدّعى البؤسَ وتشكو الورى ... ورهنُ كفيكَ المنى والسُّعود
أليس فوقَ الأرضِ غيرُ الأسى ... أما ترى عيناكَ غيرَ اللحود
هٰذى الأغاريدُ وهٰذا الهوى ... وذلك الحسنُ وتلك القدود
وهٰذه الأقداحُ فوّارةً ... والدلُّ والسّحر وخفقُ النُهود
أليسَ فيها ما يَبُلُّ الصّدى ... ويفرحُ القلبَ المعنى العميد

***

عدتُ إلى الشارع نَضْرَ المنى ... والكونُ فى عينىَّ خلقٌ جديد
تقولُ لى النفسُ وقد أُنسيَتْ ... ما أَلِفَتْهُ من شقاء تليد :
أليسَ حقًّا صفو هذى الدُّنا ؟ ... أليسَ لى من خيرِها ما أريد ؟
***
وسرتُ نشوانَ حليفَ الرِّضى ... يغمُرُ جفنيَّ جمالُ الوجود
فرحان . . . لولا منظرٌ لاحَ لى ... أماتَ فى قلبى الحبورَ الوليدْ
طفلٌ على وجهِ الثرى نائمٌ ... كأنهُ الجيفةُ فوقَ الصَّعيد
تحسبُهُ فى بؤسهِ كوكباً ... تحت نثاراتٍ من السُّحْبِ سودْ
تدفعُ عنه البردَ أسمالُهُ ... لو تدفعُ الأقدارَ كفُّ العبيد !
***
وجاءه الشُّرطىُّ مستأسداً ... يحرِمُهُ هذا الرقادَ الشَّرودْ
أليسَ فى منظرِهِ غُصَّةٌ ... لسادةِ الأرضِ عبيدِ النقود ؟
أما على الدولة غَسْلُ الثرى ... من الفُضالاتِ وما لا يفيدْ ؟ !
أيقظهُ من نومهِ هاتفاً ... بلهجة الآمرِ ربِّ البنود
« هَيَّا إلى دارِكَ . . . . هيَّا أفِقْ !
فى الدارِ لا فوقَ الرَّصيفِ المجود ! »
***
الدَّار ! ما الدار ؟ وما شأنُها ؟ ... ما الأهلُ ؟ ما آباؤُهُ ؟ ما الجدود ؟
وهل ينامُ الناسُ فى دورهم ... أم مثلُهُ فوق الصَّفا والجليد ؟
وهل له بين الصُّروح العُلى ... قصرٌ مشيدٌ، أو مَقَرٌّ وطيد ؟
يا ناسُ . . . دُلوه على مقبرٍ ... وَهْوَ به راضٍ شكورٌ سعيد !!
***
يا نعمةَ الدنيا ويا عدلها ! ... ماذا جنى هذا البرىء الشهيد ؟
أماله مُتَّسَعٌ ناعمٌ ... وسْطَ المقاصيرِ وفوقَ المهود ؟
ضاقَ الثرى عنه وأترابُهُ ... بين الرياحين وفوق الوُرود
أليسَ حُلْماً صفو هذى الدنا ... وفوقها هذا الشقى الشريد ! ؟
***
يا طفلُ عِشْ فوق الثرى جائعاً ... وقضِّ أيامَكَ كلباً طريد !
ليهنِكَ الفقرُ وويلاتُهُ ... فالفقرُ نُبْلٌ وسموٌّ وَجود !
إن جعتَ فالمجدُ طعامٌ . . وإن ... ظمِئتَ فالنبلُ شراب برود !
لا تحسدِ الناسَ على حظِّهم ... فألأم الناس شقىٌّ حسود !
ولا تكن لصاً ولا مُجْرِماً ... فإن عقباكَ العذابَ المبيدْ !
ولا تَدَعْ للغيظِ من مَسْرَب ... إلى حناياكَ ولا للحقود !
واربع على الذلِّ ولا تأبه ... واسجُدْ لمن يطلبُ منك السجودْ
فغاصبُ الأموالِ حرٌّ بها ... يبخلُ إن شاء بها أو يجودْ !
مالكَ والدنيا ولذاتها ... ألم تقدَّرْ لكَ دارُ الخلودْ . ! ؟
***
إيهِ خروفَ الذبحِ متْ يائساً ... فالكونُ للعقبان أو للأسود !
أو فاتخذ بين الورى مخلباً ... كمخلب الليثِ وناباً حديد
ثم انتزع حقك مستنسراً ... ولا تدعهُ لُعْبَةً للقرود ! . . .

(دمشق) أمجد الطرابلسى

عناد ..!!

خطبت اليه عروس الخيال ... أزف اليها المنى الساميه
أزف إليها أغانى السماء ... وأمهرها مهجتى الغاليه
وأجعل حبى لها هيكلا ... تكون صلاتى به ناميه
غلائلها من ضياء النجوم ... وأزرارها القبلة الواريه
منازلها حيث شاء النعيم ... وأبوابها فى يدى الحانيه
وأحلامها طول أيامها ... كما تحلم الزهرة الراويه
تطوف عليها طواف السلام ... وترقص رقصاتها العاريه
أفىء إليها بشوقى الوفير ... فتلتق به نعمة العافيه
نظل كطيرين فى روضة ... أليفين فى عيشة راضيه
نطير كروحين فى جنة ... نعانق أحلامنا الظاميه
تقبل خد الصباح المنير ... ونرقص للنسمة الساريه
وأنت تبارك أشواقنا ... وتبنى لنا العش فى الداليه
فندعو بكل أهازيجنا ... لمنشىء جنتنا الدانيه
وننشد أنغامك السامعات ... ونشكر آلاءك الضافيه
حنانك لا أنت قارون فى ... خزائنه الأنهر الجاريه
ولا أنت (فوردٌ) ولا شبهه ... ولا أنا ذو راحة خاليه
فهذا وذاك رهين الفناء ... وكل سيقضى بلا باقيه
يبدد آلامه ذو الغنى ... كمدِّ دنانيره الفانيه
ولكن قلباً كبير الغرام ... يعيش الحياة ... الثانيه

(الكرك) صبحى فرج



ميكلانجلو

العبقرية الملهمة

MICHELANGELO

للدكتور أحمد موسى

خاتمة

أما المرحلة الثانية التي تنحصر بين سنة ١٥٠٥ ، ١٥٣٥ فهي تبدأ عندما رحل إلى روما وأقام فيها ، حيث أتم أبرز عمل في حياته ، ألا وهو تصوير السقف السكستيني بالفاتيكان على الجص (الفرسكو) ، فظل من مايو سنة ١٥٠٨ إلى خريف سنة ١٥١٢ منكباً على العمل لا يعاونه مساعد ولا ينصرف إلى غيره ؛ الأمر الذي عاد عليه بشيء من حدة الأعصاب يؤوله غير عارفيه بكراهيته للناس

وهذا السقف مقبب يتوسطه حقل يكاد يكون مسطحاً ، وجنوبه مقببة أيضاً ولكن بشكل سيمتريكي متناظر ، يتخلل هذه الجوانب نوافذ على هيئة أهلة

ولا بد أن تؤدي بنا الرغبة في تفهم إنتاج ميكيلانجلو تفهماً صحيحاً إلى تقسيم تصويره هذا السقف إلى أربع شعب : إحداها تتناول المصورات الدينية التي صورها في وسط السقف في تسعة حقول عدا صور الجوانب التي منها أربع كبيرة والأخرى صغيرة ؛ محاطة كلها باطارات وجامات من الشبهان (البرونز) ؛ والأخرى تمثل مناظر تاريخية للعهد القديم كخلق الدنيا ، وخلق آدم وحواء ، ونوح والطوفان ، والخالق يبدى إرادته ، وتناولت غيرها خلق النور من الظلام ، وخلق الشمس والقمر والنبات ، وخلق الحيوان ، وخلق آدم . وفي هذه القطعة عبر عن نهاية النهايات أبدع تعبير يمكن أن يتصوره ويخرجه فنان ، وخلق حواء والخطيئة والطرد من الجنة ، وفي هذه أجاد في تمثيل قوة الارادة عند حواء ، والطوفان



جزء من صورة الطوفان — كابيلا سكستينا

وله صور على الجوانب المقببة لا يتسع المجال لذكرها جميعاً ، ولكني أقتصر على ذكر أهمها من الصور التاريخية ، التي من أروعها صور الأنبياء والكاهنات وهي تقع بين فتحات النوافذ ، وقد أجاد تصويرها وكلها ترمي إلى نشر رسالة الخلاص والتبشير بانتهاء الجاهلية واليهودية . وأستطيع أن أقرر أن هذه المناظر أجل وأعظم ما أبدعه فنان على مر القرون ، فهي الكعبة التي يحج إليها كل فنان حيث يقف ناظراً مستلهماً ، فيذهب به خياله إلى التسبيح بذكر العلي القدير الذي جعل من بين خلقه من استطاع الوصول بالفن إلى هذا الكمال . يقف المشاهد أمام هذا الخلق الرائع والجمال السامي والنبل العظيم كما لو كان في حلم هنيء فيشعر دون إرادة منه بمبيق العبادة يحيط به ، ونقاوة القلب

وصفاء الضمير يغمر كيانه ، ويحس أنه قد تجرد من حاجات النفس المادية ، ثم لا يلبث أن يرجع ببصره مطأطىء الرأس أمام العظمة الآلهية التي تمثلت خير تمثيل في إبداع العبقري الملهم

ولا بأس من أن نعرج قليلاً على ذكر بعض هذه المصورات التي أرى أن أهم ما يجب تعريفه للقارىء منها هو : صورة جرمياس وقد غطت وجهه تجاعيد الهم والتفكير والكرب ، وصورة يونس والحوت . وصورة كاهنة عجوز ساحرة

كما أن له صوراً قصد بها التحلية ولم يسمها وهي تشمل رجالاً وأطفالاً ، وقد عرت جسوم الأولين ، ويستوقف المتأمل في هذه الصور جمال التفاصيل وقوة الاخراج ، والابداع في إبراز الحركات الجسمانية كاملة قوية مما يجعلها تنبض بالحياة وتتحدث عن عظمة الفن



خلق الشمس والقمر — كابيلا سكستينا

ومن هذا نرى أن السقف السكستيني هو أعظم إنتاج وصل إليه ميكيلانجلو ، ليس في هذه المرحلة الثانية فقط ؛ بل في حياته كلها ، لأنها مثلت القدرة الفائقة في الخلق الفني الأسمى والتفوق الرائع في التعبير عن المثل الأعلى ، كما تعرفنا بيمينيه المحيطتين اللتين نظر بهما إلى الحياة فتغلغل إلى كنهها

وسافر بعد هـذا إلى فلورنسا وهناك لا نعرف له إلا صورة واحدة أسماها « ليدا والبجعة » وهي مصورة بطريقة تمبرا Tempera (راجع المقال السابق) أتمها سنة ١٥٣٠ ، وللأسف توجد في أسوأ حال بالناشيونال جاليري بلندن

وكان أهم عمل له في المرحلة الثالثة صورته « ليوم القيامة » وهي هائلة عملها بالفرسكو على حائط الهيكل السكيتيني من سنة ١٥٣٥ إلى سنة ١٥٤١ ، وتشمل السيد المسيح كقاضي العالم وإلى جواره مريم وحوله القديسون وبالقرب منه صورتان رسمت كل منهما في نصف دائرة ممثلة مجموعات من الملائكة

أما في الوسط فيوجد سبعة ملائكة رفع الأتقياء إلى النعيم وعلى اليسار الالقاء بالمغضوب عليهم في الجحيم ، وهنا نرى عبقرية ميكيلانجلو قد بدت في أقوى مظاهرها

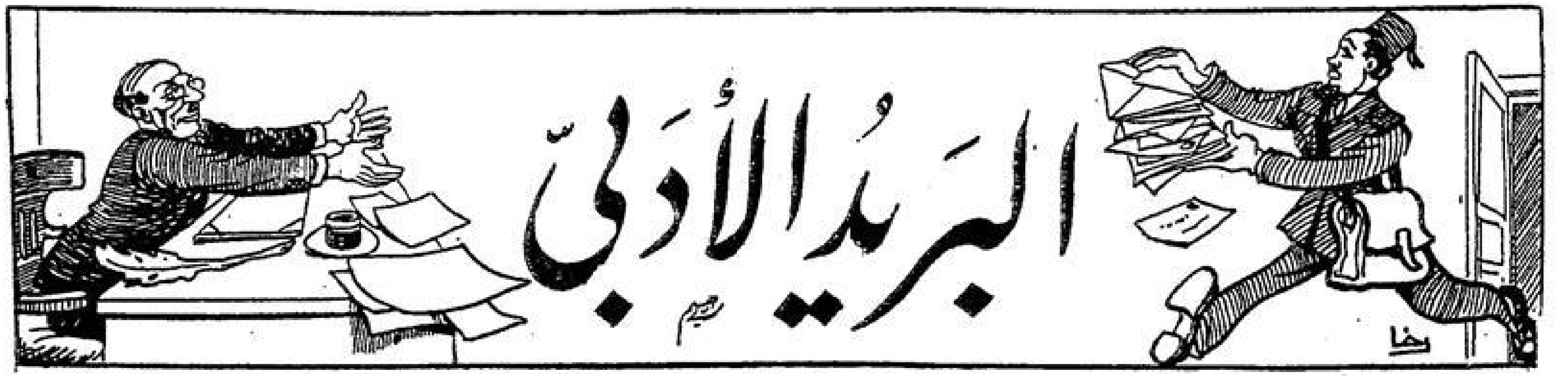
وتحت هـذه المناظر صورة أخرى تمثل البعث وغيره من المناظر الدينية ، كلها عظيمة الانشاء قوية الاخراج ، وفيها يتمثل العنف والسيطرة الكاملة على التصوير الجسماني في أروع مظاهره وأبدع حركاته ، وقد تحقق باخراجها على يد ميكيلانجلو حلم الفنانين والمثل الأعلى لمؤرخي الفن الذين يعتبرون خلقه وإبداعه أسمى مقياس يمكن الوصول إليه ؛ ولا سيما أنه قد تحرر في كثير من هذه المناظر من قيود الكنيسة وتعاليمها ، طامحاً نحو السمو والكمال الفني المنشود ، فخرج عمله شعراً منثوراً من الناحية المعنوية ، وتصويراً عظيما من الناحية الفنية



صورة نبي — كابيلا سكستينا

والناظر إلى هذه الصور يرى عليها شيئاً من اللون الدخاني قد غلّبه على كل ألوانها مرور مئات السنين وكثرة إشعال البخور داخل الكنيسة

أما آخر أعمـاله التصويرية فهو مجموعة المصورات المسماة « باولينا » وهي أيضاً بالفاتيكان بروما . وأهمها صورتان عظيمتان



شيخ الأزهر وقت مقدم النابلسى

ذكرت ضمن مقالى المنشور بالرسالة (عدد ٢٠٨) عن رحلة الشيخ عبد الغنى النابلسى فى مصر فى أواخر القرن السابع عشر واقعة وردت على لسان الرحالة أكثر من مرة ، وهى أن شيخ الأزهر وقت مقدمه إلى القاهرة فى أوائل سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) كان « الشيخ منصور المنوفى الأزهرى الشافعى الضرير » ؛ فعلق الأستاذ عبد المتعال الصعيدى على هذه الواقعة (الرسالة رقم ٢٠٩) بكلمة أبدى فيها ارتيابه فى صحتها ، وذكر نقلاً عن الخطط التوفيقية أن شيخ الأزهر وقت مقدم النابلسى لم يكن سوى الشيخ محمد النشرتى المالكى ، وأنه تولى مشيخته من سنة ١١٠١ هـ إلى سنة ١١٢٠ هـ

وقد رجع الأستاذ الصعيدى بنفسه إلى رحلة النابلسى (الحقيقة والمجاز) ، فألفى ما نقلته عنه صحيحاً ، وأنه أشار إلى الشيخ منصور المنوفى ووصفه أكثر من مرة بأنه شيخ الأزهر ولكنه مع ذلك يصر على ارتيابه فى صحة هذا الوصف

ولم أكن أقصد حين كتبت مقالى عن رحلة النابلسى أن أحقق من كان شيخ الأزهر فى ذلك الحين ، فهذه مسألة لم تكن ذات شأن فى موضوعى ، وإنما قصدت قبل كل شىء أن أستخلص من هذه الرحلة الصورة التى يقدمها لنا الرحالة عن مصر ومجتمعها فى ذلك الحين ؛ على أنى مع كل ما نقله الأستاذ الصعيدى عن المصادر المتأخرة (مثل الجبرتى والخطط التوفيقية) لا زلت أميل إلى الأخذ بقول النابلسى من أن الشيخ منصور الأزهرى كان شيخاً للأزهر حسبما يقدمه لنا ، أولاً لأن هذا القول هو قول معاصر وشاهد عيان عرف الشيخ وحادثه بنفسه ، ولست أعتقد أنه يسبغ عليه هذه الصفة عفواً ، وثانياً لأن الشيخ النابلسى يقدم إلينا بياناً صحيحاً عن أكابر الحكام والمشايخ فى مصر وقت مقدمه ، ومن الصعب أن نعتقد أنه يخطئ فى تعرف شيخ الأزهر وهو من الشخصيات البارزة التى يهمه أن يتصل بها

أما كون الشيخ النابلسى يسبغ هذه الصفة على شيخ آخر

كبيرتان ، الأولى لظهور المسيح ، والثانية لصلب بطرس (١٥٤٥ — ١٥٥٠) وهما لا تقلان روعة عما سبقهما ، ولو أن طريقة الاخراج كانت على شىء يسير من التكلف ، أما الثانية فقد ظهرت واضحة جلية فى الكيفية التى سار عليها فى تصوير الأجسام المائلة التى بدا عليها العنف والحركة

ومهما حاولنا الوصف فان مشاهدة هذه المناظر مما لا بد منه لمن يريد الوقوف على مدى القوى البشرية الموهوبة من الخالق ومدى ما يمكن الوصول إليه من عمل فنى رائع ، إن قدّر لنا أن نفهمه استطعنا أن نستمتع بناحية من أسمى وأروع نواحى الاستمتاع الانسانى

وله أيضاً فى هذه المرحلة صورتان تخطيطيتان لمشوقته فيتوريا كولونا ، ويتجلى فيهما تأثره بالدين ، كما نلاحظ من عنايته الفائقة ما كان لهذه المشوقة من قدر فى نفسه وأثر عليها ، أما صورته لمريم والمسيح مأخوذا من الصلب ، وصورته للمسيح مصلوباً فان أصولها مجهولة للآن

وتكاد تكون جامعة أكسفورد هى الفريدة التى حصلت على مجموعة جيدة من تصويره الخطى ، ويعقب ذلك جاليرى بوناروتى فى أوفيسين والمتحف البريطانى ومتحف اللوفر

تلك صفحة مبسطة لحياة رجل خالد اعتبره الفن إماماً والتاريخ مقياساً ، فمحاولة الاحاطة به هنا متعذره ؛ لأن إبداعه الفنى وتحليل آثاره العظيمة لا يحيط بها إلا ضخم المجلدات

أحمد موسى

وكون المصادر المتأخرة تذكر أن شيخ الأزهر في ذلك الحين هو الشيخ النشرتي فقد يمكن تفسيره بأن الشيخ المنوفي لم يمكث في المشيخة سوى أشهر وربما أسابيع قلائل ، وعلى ذلك فقد أغفل المتأخرون ذكره في ثبت مشايخ الأزهر

وعلى أي حال فانه مما يصعب على المؤرخ إغفاله قول معاصر وعلامة ثقة كالشيخ النابلسي

محمد عبد الله عنان

بحوث طبية هامة لطبيب مصري :

رفع الدكتور أنيس أنسي بك الطبيب الباثولوجي الأول بمعامل وزارة الصحة إلى صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا نتيجة بحث علمي قام به أخيراً وتناول فيه موضوعين : الأول خاص بسبب تضخم الطحال في القطر المصري ووادي النيل بوجه عام ؛ وقد سبق لباحثين كثيرين أن بحثوا في هذا الموضوع منذ أربعين سنة فلم يصلوا إلى نتيجة حاسمة ، وتضاربت الآراء العلمية حول سبب « تضخم الطحال » فقال بعضهم : إن سببه « ميكروب » مجهول ، وقال آخرون : إنه نوع من الفطريات . الخ . غير أن الدكتور أنسي بك اهتدى إلى أن السبب الحقيقي لهذا التضخم هو بويضة البلهارسيا « المرض المتوطن في مصر ووادي النيل » . وقد اعتمدت الجمعية الملكية البريطانية لطب المناطق الحارة والصحة العامة هذا البحث في جلستها المنعقدة بتاريخ ٢٥ أبريل سنة ١٩٣٧ ونشرته بمجلتها

أما البحث الآخر فقد اقترن بقيام الدكتور أنسي بك بعدة إحصاءات لعمليات الزائدة الدودية فاهتدى إلى أن معظمها أو ما يقرب من ٦٠ ٪ منها راجع إلى التهاب حاد ناشيء عن الاصابة بالبلهارسيا أيضاً وخاصة في المديريات الشمالية ، وقد بين أنسي بك أنه لا ضرورة لاجراء العملية لهؤلاء المصابين بل يكتفى بعلاج سببها وهو مرض البلهارسيا . ثم أوضح في بحثه كيفية الوصول إلى التمييز بين التهاب الزائدة الدودية الصديدي الذي ينتهي غالباً بالتهاب البريتون والوفاة ، وبين التهاب الزائدة الدودية الناشيء عن إصابة البلهارسيا . فكان هذا أول بحث من نوعه في عالم الطب . وقد قامت الجمعية الدولية للجراحة في مؤتمرها العاشر ببحث هذه النتائج فاعتمدت ما انتهى إليه الدكتور أنسي بك ونشرته على نفقتها باعتباره استكشافاً جديداً لم يسبق المؤلف المصري إليه أحد

في الأكاديمية الفرنسية :

احتفلت الأكاديمية الفرنسية أخيراً باستقبال عضو جديد فيها هو الكاتب القصصي والصحفي الكبير إدمون جالو E. Jaloux ؛ وقد انتخب للكرسي الذي خلا بوفاة الشاعر والقصصي والنقادة الأشهر بول بورجيه الذي توفي منذ بضعة أشهر ، وكان بورجيه يشغل هذا الكرسي منذ أكثر من أربعين عاماً ؛ وقد افتتح إدمون جالو عهده في الأكاديمية كالمعتاد بالقاء حديث طويل عن سلفه وعن حياته الأدبية ومميزاته ومواهبه ؛ وكان أهم ما في حديثه أن بورجيه قد تأثر في حياته بحادثين عظيمين طبعا حياته كلها بطابع خاص ؛ أولهما وفاة والدته وهو طفل وزواج والده من سيدة أخرى ، وثانيهما أنه رأى حكومة الكومون في باريس (سنة ١٨٧١) وقد أثر الحادث الأول في نفسيته أعظم تأثير ، واستطاع أن يدرس خلاله تلك العاطفة التي كثيراً ما ينوه بها في قصصه وهي : « الغيرة »

وإدمون جالو من كتاب الجنوب في فرنسا ، وهو مرسيلي الأصل ، وله عدة روايات وقصص ممتعة ، وهو صحفي يكتب في كبريات الصحف الفرنسية فصولا أدبية مختلفة

وطن قومي للنور

اختار النوَر (الغجر) في بولونيا لهم ملكا جديداً ، ومنهم في بولونيا بضعة عشر ألفاً مفرقين في سائر أنحائها ؛ وقد صرح الملك الجديد بأنه سيعمل على حل مسألة الوطن القومي للنور وسيزور السنيور موسوليني لأجل هذه الغاية ، وربما استطاع النور أن يجدوا لهم وطناً قومياً في الحبشة يلم شعثهم ويجمع صفوفهم ؛ وهذه مسألة قديمة تبحثها بعض الجمعيات السياسية في انكلترا وألمانيا منذ نحو قرن ، بيد أنها لم تعمل شيئاً لحلها . على أن النور استطاعوا خلال القرن الأخير أن يحصلوا على حقوق المواطنين في معظم البلاد الأوربية مثل النمسا والمجر ورومانيا . وقد أخذ كثيرون منهم يهجرون حياة البدو ، ويستقرون على قواعد الحضارة الحديثة ، واندمج الكثير منهم في المجتمع الحديث

ونسوا لغتهم وعاداتهم القديمة ؛ وقد حصل النور فى بلاد البلقان على حقوقهم السياسية بمقتضى معاهدة برلين فى سنة ١٨٧٨ ؛ وفى سنة ١٩٠٦ عقدوا أول مؤتمر من النور فى صوفيا وطوالب فيه بمنح الحقوق السياسية لنور تركيا ؛ وخطب يومئذ رئيس النور رمضان عليف ، وحثهم على المطالبة بالحقوق السياسية

والآن يرى النور أن يقوموا بحركة جديدة لانشاء وطن قوى خاص بهم على مثل مافعل اليهود فى فلسطين . ومن المستحيل أن يعرف عدد النور ، بيد أنهم يبلغون فى أوربا وما حولها نحو ثلاثة ملايين

متحف للآلات الموسيقية

افتتح متحف فى نويبرت من أعمال نيرمبرج (ألمانيا) يحتوى على مجموعة فريدة من الآلات الموسيقية هى أتم مجموعة من نوعها ، وتضم هذه المجموعة نماذج من الآلات الموسيقية فى القرون الخمسة الأخيرة ، وكلها فى حالة جيدة من الحفظ ويمكن العزف عليها ، وهى بذلك تقدم إلى الموسيقيين ومؤرخى الموسيقى مادة بديعة للدرس والتأمل ، وبواسطتها يمكن استعراض التطورات المختلفة فى تركيب البيانو الذى أصبح أداة العصر وكيف أصبح على ما هو عليه الآن ، ومن النماذج المعروضة بهذا المتحف معزف (اكلافسان) صنع فى سنة ١٧٠٣ ذو ثلاث أنغام وكان ملكا لآل مديتشى سادة فلورنس ، وبيانو صنع سنة ١٧٤٠ فى أوبرزنتوفن من أعمال بلناريا ، وبيانو آخر كان ملكا لأمير الموسيق موتسارت من صنع كيرنباخ بمايانس ، ونماذج أخرى لآلات مختلفة ترجع إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر

موسم الفن والموسيقى فى سالزبورج

يقام موسم الفن والموسيق فى مدينة سالزبورج (النمسا) هذا العام بين ٢٤ يولية و ٣١ أغسطس ، وقد غدا هذا الموسم حادثاً فنياً عالياً يجلب إلى سالزبورج فى كل عام آلاف الزائرين من مختلف الأقطار ، ويشرف على إحياء هذا الموسم كالعادة أقطاب الفن العالميون نمسويون وغيرهم ، مثل أرتورو توسكانينى ، وبونو فالتر ، وماكس رينهارت ، وهانس كنبر تسسبوش ، ومعروف أن سالزبورج هى موطن موتسارت ، ولهذا تحتفى أوبراته بعناية خاصة ، وسيمثل منها هذا الفصل « دون جوان » « والمزمار المسحور » ، « وليل فيجارد » ، وتمثل أوبرات خالدة أخرى مثل « الأساتذة المغنون » لفاجنر ، و« فيدليو » لفان بتهوفن ، و« فالستاف » لفيردى ؛ وأوبرات أخرى لريخارد شتراوس ؛ كذلك تقام حفلات موسيقية عظيمة من مقطوعات موتسارت وشوبرت ، وبيتهوفن وفبير وهايدن وغيرهم ، ومنها حفلات كنسية تقام فى كاتدرائية سالزبورج ، وإلى جانب هذه الحفلات التمثيلية الرائعة التى تقام فى مسرح البلدية الكبير تقام طائفة أخرى من الحفلات الباهرة فى مسرح موتسارت من أول يولية إلى أول سبتمبر ، وتموج مدينة سالزبورج أثناء هذا الموسم الفنى العظيم بالزائرين من مختلف أنحاء الأرض ، ويبلغ الاقبال على هذه الحفلات حداً لا يتصور ، بحيث يستحيل على الراغبين أن يفوزوا بتذاكرهم إذا لم تحجز قبلها بأسابيع

ذكرى أبى العلاء فى الرابطة العربية

رأى مجلس إدارة الرابطة العربية وقد حان موعد العيد الألفى لفيلسوف العرب وحكيمها وشاعرها « أبى العلاء » أن يوجه إلى العالم العربى نداءه ورجاءه أن يعاونه فى المهرجان الأدبى الكبير الذى سيقيمه تخليداً لهذه الذكرى وإشادة بأدب هذا الشاعر الذى يعد مفخرة العالم قاطبة والشرق خاصة

وإن الرجل الذى تدعو الرابطة إلى الاحتفال بذكراه الألفية ليس بأقل مكانة من أدباء العالم الذين قادوا الذهن الانسانى وأناروا دياجير الحياة بما وهبوا من حكمة ، فهو فى مقدمتهم بل مجليهم الأوحد . فان قامت الشعوب الغربية بتخليد ذكرى هؤلاء الفلاسفة فى مواسم حافلة يحج إليها الناس من كل فج ليتلقوا منها الوحى والالهام الأدبى ، فالأحرى بالشرق العربى أن يخلد ذكرى فيلسوفه العظيم

وإن الروح الطيبة التى أملت الاحتفالات الفخمة بتخليد ذكرى المتنبى لتجعل الأمل قوياً والرجاء كبيراً فى أن يلقى هذا النداء كل اقبال وتشجيع

هذا وستصدر الرابطة قريباً بياناً جامعاً بأسماء حضرات أعضاء اللجنة التحضيرية وموعد إقامة المهرجان ونظامه ومدته

سكرتير الرابطة

كامل نويهض



عـــــزلة

للكاتب القصصي الفرنسي جي دي موباسان

ترجمة الأستاذ خليل هنداوي

وكان ذلك عقب غداء فشا على أثره طرب قوى ، قال لى صديق قديم :

— هل لك بأن تجوز ممشى « الشانزليزيه » سعياً على الأقدام ؟

انطلقنا بخطوات وئيدة ، تظللنا أشجار فى مطالع الايراق ، وقد هيمن السكون على تلك البقعة ، ما عدا تمتمة مبهمة دائمة تصاعد من قلب « باريس » ، ولقد تهب نفحات باردة تضرب وجوهنا ، ومن فوقنا قناديل من نجوم تبسط على أديم السماء الأسود أزراراً ذهبية !

قال رفيق :

— لست أدرى لماذا أرى الليل — هنا — أجمل منه فى مكان آخر ؟

يخيل إلىّ أن أفكارى تتمدد فى أرجائه ، وأن فى روحى هذه المسارب من النور الدافق التى تطمعنى — خلال برهة واحدة — بأن أطلع على السر الآلهى للأشياء ، ولكن سرعان ما توصد النافذة ، فينتهى باغلاقها كل شىء

وكنا بين الدهلة والدهلة نلمح على الأرصفة شبحين متلاصقين يزلقان فى الليل أو نمر بمقعد منزل استوى عليه كائنان لا يراهما الرائى إلا نقطة سوداء . همس فى أذنى رفيق :

— إنهما لا يبعثان فى فؤادى سأماً ، ولكن إشفاقاً كبيراً ، ومن كل أسرار الحياة لا يلوح لى إلا سر واحد يشغلنى ، وإن كل عناء فى الحياة مصدره أننا نحيا دائماً منعزلين ! وكل ما نبذل من جهودنا لا نريد به إلا الفرار من هذه العزلة . إن هؤلاء العشاق المنطرحين على المقاعد فى الجو الطلق يفتشون

تأبين الرافعى

نشرت الرابطة العربية بياناً فى الصحف اليومية والاسبوعية بأسماء حضرات أعضاء لجنة الاحتفال بتأبين فقيد العروبة والاسلام المرحوم السيد مصطفى صادق الرافعى ، وبالموضوعات النثرية التى سيتناولها الأدباء فى رثائه ، وحددت موعداً لاقامة الحفلة فى شهر اكتوبر المقبل ، فتحركت لذلك عواطف أعيان الأدب وأمراء البيان وقادة الفكر فى العالم العربى وأرسل إليها بعض حضراتهم ماجادت بهم قرائحهم الوقادة إشادة بأدب الفقيد الكبير وتقديراً لآرائه وبحوثه

ولما كانت الرابطة معتزمة إصدار كتاب جامع لتاريخ حياة الفقيد ، وبعض آثاره ، وما يقال فى رثائه شعراً ونثراً تخليداً لذكراه واعترافاً بجهوده الجبار فى خدمة العروبة والاسلام ، وليكون نموذجا حياً للأدب الخصب والثقافة العالية فهى تأمل فى كتاب الشرق العربى وأدبائه ، وأئمة البيان فيه وشعرائه ، أن يبادروا بارسال ما توحيه إليهم ضمائرهم المؤمنة بفلسفة الفقيد الكريم ، والمقدرة لأدبه الحى الحديث والقديم ، فى أقرب وقت بعنوان سكرتير الرابطة بحدائق القبة شارع الملك رقم ١١٢ حتى يكون لدى الرابطة متسع لاصدار هذا الكتاب يوم حفلة التأبين

سكرتير اللجنة

كامل زيتونه

مثلنا عما يخفف مضض انعزالهم — وما ذلك إلا عمر لحظة — ثم يظلون منعزلين ونحن أيضاً

إنهم يحسون هذه العزلة ، أقل أو أكثر منا ، وهذا كل شيء . منذ حين أقاسي العذاب لأنني أدركت واكتشفت العزلة المروعة التي أحيا فيها ، وعلمت أن لا شيء يستطيع أن يقضي عليها مهما جربنا ، ومهما عملنا ، ومهما ذهبت إليه خفقات أفئدتنا ، ونجاوى شفاهنا ، وضمات أذرعنا ، فنحن دائماً نظل منعزلين

إنني قدتك هذا المساء إلى هذه النزهة ، فراراً من الجوى إلى بيتي ، لأنني أتألم كثيراً من العزلة التي تهيمن على المنزل ، وما عسى يجديني هذا ؟ إنني أكلمك وأنت تسمعني ، ونحن وحدنا جنباً إلى جنب ، ولكنا منعزلان …

يقول الكتاب المقدس : سعداءهم مساكين الأرواح ، إن عندهم وهم السعادة ، إنهم لا يشعرون بشقائنا المنعزل ، ولا يهيمون مثلي في الحياة ، لا يعرفون من اللمس إلا لمس المرافق ، ولا يعلمون من الفرح إلا قناعتهم الأنانية بالفهم وبالنظر ، وبالتنبؤ وبالتألم دون نهاية من إدراك عزلتنا الأبدية

إنك لتراني مجنوناً ! أليس كذلك ؟

إنني بعد ما أحسست عزلة كياني ، خيل إليّ أنني أهوى يوماً فيوماً في مهوى مظلم لم يقع طرفي على حافة له ، ولم أدرك له نهاية ، وربما كان بلا غاية . فأفلتُ إليه وحدي دون رفيق معي ولا حولي ، ولا سالكٍ طريق المظلمة . هذا المهوى هو الحياة ، وخلال ذلك كنت أسمع صخباً عالياً وصيحات وأصواتاً فكنت أدنو من هذا الصخب المضطرب متسللاً ، ولكني لم أعلم علم الحق من أين مأتاه ، وما ألفيتُ إنساناً ، وما عثرتُ على يد أخرى ترتفع في هذا الظلام المسدل عليّ

هناك رجال مثلنا أحسوا هذا الألم الممض وتنبأوا به ، منهم « موسى » الصائغ :

« من جاء ؟ ومن دعاني ؟ لا أحد !

أنا وحدي ! وهذه الساعة التي تدق

يا للعزلة ! يا للشقاء ! »

ولكن العزلة — عنده — ما كانت إلا شكا طارقاً ، ولم تكن حقيقة ثابتة كما هي عندي . إنه كان شاعراً ، يؤنس الحياة بأخيلته وأحلامه . إنه لم يكن وحده أبداً . ولكني أراني وحدي

وهنالك « غوستاف فلوبير » أحد كبار أبناء الشقاء في هذا الوجود ، لأنه كان أحد عباقرته ، كتب إلى صديقة له هذه العبارة اليائسة « نحن كلنا في صحراء ، لا يفهم أحد منا أحداً » بلى ! لا يفهم أحد منا أحداً ، فمهما فكروا ، ومهما قالوا وجربوا فالأرض هل تعلم ما يجري على مسارح هذه الكواكب المنتشرة كذرة نارية في هذا الفضاء نرى منها على البعد صعاء بعضها ، والأكثر عددا منها ضائع في اللانهاية ، وقد يؤلف القريب منها كلا واحدا كما هو الحال في ذرات الجسد

وهكذا الانسان لا يدري ما يجول في صدر رفيقه الانسان وإن واحدنا لأكثر بعداً عن الآخر من هذه الكواكب السابحة ، وأكثر اعتزالا لأن الفكر لا يسبر غوره

هل تعلم شيئاً أبعث على الهول من هذا التماس الخاطف في الأكوان الذي لا نستطيع إدراكه . إننا نحب بعضنا بعضا كأننا مقيدون مبسوطة أذرعنا دون أن نقدر على ضم . على أن حاجة ضرورية للاتحاد تؤلفنا ، ولكن جهودنا لاتزال ضائعة ، وثقتنا غير مجدية ، وعناقنا ضعيفا ، وحناننا باطلاً ، فاذا أردنا اتحاداً لم تعمل مطامعنا إلا على إقصاء واحدنا عن الثاني

إنني ما شعرت أنني « واحد » إلا حين أستسلم لصديق وأفتح قلبي له . إذ أفهم ذلك الحاجز القائم بيني وبينه . هو هنالك ، ذلك الانسان ، أرى عينيه تسطعان حولي ولكن نفسه — وراءها — لا أدركها . هو يسمعني ، ولكن فيم يفكر ؟ أجل ! فيم يفكر ؟ إنك لا تفهم هذا القلق ، إنه ربما يقليني ، أو يحقرني ، أو يسخر مني ، إنه يفكر فيما أقول ، يناقشني ، يحكم علي ، يراني أبله أو أحمق . وأنى لي أن أدرك ما يفكر فيه ؟ وأنى لي أن أفهم هل يحبني كما أحبه ؟ وما يجول في هذه الجمجمة المستديرة ؟! وأي سر هذا الفكر المجهول في كائن : الفكر المتواري الحر الذي لا نقدر على معرفته ولا قيادته ، ولا الاستيلاء عليه ، أو الظفر به ؟

أنا ، أردت بكل نفسى أن أسلم نفسى كما هى وأفتح أبواب نفسى جميعها . ولكنى لم أقدر على هذا الاسلام كله ، لأننى أصون فى أعماق نفسى « مكان ذاتى الخفية » حيث لا يظهر أحد ولا يقـدر أحد أن يكتشفه أو يدخله ، لأنه لا أحد يشبهنى ، ولأنه لا أحد يفهم أحداً !

أفهمتنى أنت الآن ؟ كلا ! إنك لتحكم على بالجنون ، إنك تتأمل فى ، وتحترز منى ! وتسأل نفسك : « ماذا به هذا المساء ؟ ولكنك إذا قدر لك يوماً أن تدرك موضع الألم فىّ فعد إلىّ لتقول لى : « قد فهمتك ! » وحينذاك تجعلنى سعيداً — ولو عمر لحظة —

هن النساء اللواتى جعلننى أحسن تقبل وحدتى ، آه كم تذوقت من الألم فى سبيلهن ! لأنهن منحننى ، أكثر من الرجال ، التوهم بأننى لست وحيداً !

عند ما يحب الانسان يحس أن عالمه قد اتسع ، وأن سعادة — فوق السعادة الانسانية — تغمره . هل تعلم سبب ذلك ؟ وهل تعلم مصدر هذه السعادة ؟ يعود مصدره الى أن الانسان اعتقد بأنه ليس وحيـدا . وأن العزلة أو الابتعاد عن الكيان الانسانى قد انتهى سلطانه ، ويا للوهم !

المرأة هى أشد قلقاً منا بهذه الحاجة الملحة للحب الثابتـة التى تأكل قلبنا المنعزل ، وهى الأكذوبة الكبرى من الحلم

إنك لتعرف هـذه السويعات الجميلة التى نقضيها مع هـذا الكائن الذى طالت غدائر شعره ، وراقت ملامحه أو فتكت لحاظه ، فأى هذيان يملك علينا أرواحنا ؟ وأى وهم يغمرنا ؟

أنا وهى لم نكن إلا واحداً فى هذه الساعة ، ولكن هـذه الساعة لن تحين ، وبعد أسابيع انتظار وأمل وفرح بخادع ، أجد نفسى فجأة أكثر انعزالاً ووحدة من أى عهد مضى ! فبعد كل قبلة وبعد كل عناق أجد العزلة تتسع آمادها ، ويا لهـا من عزلة مروعة مؤلمة !

يقول الشاعر « سوللى برودوم » :

ليس العطف والحنان إلا هياناً مقلقاً

كلها تجاريب باطلة يقوم بها الحب التاعس مجربا « الاتحاد المحال » بين « الأرواح والأجساد »

ثم وداعا ، فقد انتهى كل شىء ، على أن هنالك جهداً فى معرفة المرأة التى كانت كل شىء لنا ، فى لحظة من الحياة ، وما عرفنا ولن نعرف الفكرة الباطنة والسطحية من دون ريب ! وفى الساعات ذاتها حيث يخيل إلينا أن الأكوان أصبحت فى عهد اتحاد سرى وامتزاج كامل للرغاب ، تنزل إلى أعماق نفسها ، وكلمة قد تكون واحدة تبدى خطأنا ، وتطلعنا — كأنها البرق الوامض فى الليل — على الهاوية التى تفصل بينها وبيننا !

وهنالك ماهو خير وأحسن فى الوجود ؛ أن تقضى أمسية مع امرأة تحبها دون أن تتكلم ، سعيداً كل السعادة ، منتبطا بمجرد قيامها إزاءك . حاذر أن تطلب أكثر من هذا ، لأن امتزاج كائنين مستحيل

أما أنا الآن فقد غلقتُ أبواب نفسى ، لا أقول لأحد عما أعتقد ، ولا أظهر ما أفكر . أنظر إلى الأشياء ، وأنا عالم ما تحمله إلىّ العزلة المروعة — دون أن أعلن عنها ، وما عسى تهمنى الأفكار والمشاحنات والمسرات والاعتقادات ؟ لا أستطيع أن أقاسم أحداً فكرة ، نفسى تتنصل من كل شىء ، وفكرتى الباطنة تظل خافية على الناس ، وعندى جمل عامة لكى أجيب بها على الأسئلة التى تلقى على كل نهار . وعندى ابتسامة تقول : نعم ! حين لا أكلف نفسى مشقة الكلام

لبثنا فى مشينا حتى عرجنا فى سيرنا على قوس النصر ، ثم هبطنا حتى ساحة (...) وكان يعرض فكرته متمهلاً وقد أضاعت ذاكرتى الشىء الكثير مما عرضه

وقف فجأة باسطاً يده نحو المسلة العاليـة المنتصبة الشامخ رأسها فى النجوم المنفية القصية عن موطنها الحاملة تاريخ وطنها المنقوش بإشارات غريبة ، وقد هتف صاحبى :

— إننا كلنا مثل هذه الأرض !

ثم غادرنى دون أن ينبس بكلمة

أهو مجنون أم عاقل ؟ لست أدرى : ولكن يخيل إلى طوراً أنه على بينة من أمره ، وطوراً أنه قد فقد عقله

خليل هنداوى